البابا شنودة الثالث

سلسلة الله والإنسان

[١]

الله... وكفى

الكتاب

الغلاف الداخلي	
مقدمة	
ما هى علاقتك بالله	٥
نصيبى هو الرب	١٥
معك لا أريد شيئاً على الأرض	٢١
نقط الضعف والبدائل	٢٩
التدرج	٣٤

البابا شنودة الثالث

سلسلة الله والإنسان

[١]

الله وكفى

GOD & NOTHING ELSE

BY H.H. POPE SHENOUDA III

1ST print

January 1982

الطبعة الأولى

يناير ١٩٨٢

الفهرس

مقدمة

باسم الآب ولإبن والروح القدس

الإله الواحد آمين

هذا الكتاب الذى بين يديك، هو ثمرة خمس محاضرات ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى بدير الأنبا رويس وهي:

١- معك لا أريد شيئاً من العالم	فى	١٤ - ١٠ - ١٩٧٧
٢- مركز الله فى حياتك	فى	٢١ - ١٢ - ١٩٧٩
٣- الإكتفاء بالله	فى	١٤ - ٣ - ١٩٨١
٤- أنت... والله	فى	٢٧ - ٣ - ١٩٨١
٥- الله... هدفك الوحيد	فى	٧ - ٨ - ١٩٨١

وقد تم دمجها معاً، لتقدم إليك فى هذا الكتاب، الذى هو حلقة من كتاب كبير باسم [الله والإنسان]. ونرجو أن يوفقنا الرب فى نشر باقيه بصلواتكم،،،

شنودة الثالث

الفهرس

[١]

ماهى

علاقتك بالله؟

الفهرس

أود أن أحدثكم عن موضوع حيوى، هو مركز الله فى حياة كل منا... هل توجد علاقة بيننا وبين الله؟ وما طبيعة هذه العلاقة؟ وما عمقها، وما مداها؟ وهل هى علاقة رسمية؟ أم تدخل فيها العاطفة والحب؟ وما مركز علاقتنا بالله، إذا ما قورنت بباقى علاقاتنا الأخرى؟

وينبغى أولاً ان نبين أهمية علاقتنا بالله...

هناك ملايين من الناس، فى كافة أنحاء الأرض، قد لا يهمك أن تكون بينك وبين أحد منهم علاقة خاصة. أما الله فهو الكائن الوحيد الذى لابد أن تكون هناك علاقة بينك وبينه. ولهذه العلاقة ميزات تنفرد بها...

فعلاقتك بالله، هى العلاقة الوحيدة الثابتة والدائمة.

كل من تقابله من البشر، ليست لك به علاقة دائمة. فما أسهل أن تفترق عنه – على الأرض – فى وقت ما، ويكون لك طريق فى الحياة غير طريقه، وتشعر أنها مجرد علاقة عابرة. كذلك فإن الناس الذين تختلط بهم، غالباً ما تكون علاقتك بهم محددة فى مجال معين لا تتعداه، قد تنتهى بانتهائه. أما الله فعلاقتك به شاملة، ودائمة. وهى ليست قاصرة على حياتك الأرضية...

علاقتك بالله، تشمل أبديتك أيضاً، فى الحياة الأخرى.

إنها علاقة تبدأ هنا، وتستمر عبر الخلود، فإلى جوار أن الله هو الذى خلقك وأوجدك ويرعاك، فإن فى يده أيضاً تحديد مصيرك فى الأبدية وعلاقتك به هناك. ولا شك أن هذا يختلف طبعاً عن كل علاقاتك بالبشر وبباقى الكائنات الأخرى. حتى البشر أو الملائكة الذين ستكون لك علاقة بهم فى الأبدية، فعلاقتك بهم هى أيضاً داخله فى صميم علاقتك بالله.

لذلك أفحص علاقتك بالله، واعرف حقيقتها ... عملياً...

هنا، ونضع أمامك بعض أسئلة تفصيلية:

١. هل عرفت الله؟ أم لم تعرفه بعد؟ وإن كنت تظن أنك تعرفه، فما طبيعة هذه المعرفة وما عمقها؟ وماذا يكون الله بالنسبة إليك؟
٢. هل الله له وجود واضح فى حياتك؟ وما نوع العلاقة التى تربطك بالله؟
٣. هل له الأولوية فى كل اهتماماتك ومشغولياتك ومحبتك؟
٤. هل الله ليس فقط هو الأول فى حياتك، إنما هو الكل؟ أم هل يوجد شيء آخر فى حياتك إلى جوار الله له أهمية. ما هو؟ وهل أنت تجاهد لتتخلص من كل ما ينافس الله فى قلبك، ليبقى الله وحده؟

إنها درجات فى العلاقة بالله. ما موضعك بينها؟

هنا وأرجو أن تأذن لي، بأن أتناول هذه الأسئلة واحداً فواحد ونناقشها معاً:

١. هل تعرف الله؟ وما عمق هذه المعرفة؟

وقد يبدو السؤال غريباً. فكل إنسان يظن أنه يعرف الله، وربما يقصد معرفته أنه يوجد إله. ونحن لا نقصد مطلقاً هذه المعرفة العقلية السطحية. فالشيطان ايضاً يعرف أنه يوجد إله. وقد قال القديس يعقوب الرسول "أنت تؤمن أن الله واحد. حسناً تفعل. والشياطين أيضاً يؤمنون ويقشعرون" (يع ٢ : ٩)، ويقصد مجرد الإيمان العقلى، الميت، الذى بلا ثمر، وبلا حياة فى الله...

وبعض الوجوديين يعرفون أن هناك إلهاً فى السماء. ويتهكمون فى هذه المعرفة قائلين "فليبق الله فى السماء، ويترك لنا الأرض نتمتع بها"...!

أو كإنسان يعرف أن هناك كهرباء، دون أن يعرف ما هى هذه الكهرباء وكيف تعمل، ودون أن يستخدمها فى حياته إستخداماً له عمقه ومجالاته الواسعة...

فهل انت تعرف الله هذه المعرفة العقلية السطحية وكفى؟!

وهل معرفتك لله، مصدرها الكتب، أو مجرد سماع العظات والتعليم؟ دون أى معرفة إختبارية فى حياتك، فى داخل قلبك؟ هل تسمع عن الله، كما تسمع عن شعوب بعيدة، لم ترها، ولم تختلط بها ولم تعاشرها؟! هل تعرف الله الذى يوجد فقط فى الكنيسة! فإذا ما خرجت من الكنيسة، لاتعرفه ولا تلتقى به؟! هل هو مجرد الإله الموجود فى معاهد اللاهوت وفى كتب العقيدة؟!

أسوأ ما فى المعرفة العقلية، ان تكون معرفة بلا علاقة!

لذلك، فهى لا يمكن أن تكفى... إنها تشير إلى الله من بعيد، ولكن يبقى أن تقترب إلى الله، وتعرفه عن طريق الخلطة والمعاشرة والحياة معه. وهكذا تعرف الله الذى يسكن فيك، وليس مجرد الله الذى فى الكتب. فهل تشعر بوجود الله فيك ومعك؟ أم أنك تحيا المأساة التى عاشها أوغسطينوس فى فلسفته، قبل أن يعرف الله معرفة حقيقية. وقد سجل هذه المأساة فى اعترافه، حينما قال للرب "كنت معي. ولكنني من فرط شقاوتي، لم أكن معك"... كان الله معه، وهو لايحسه، ولا يشعر به!

وهنا ننتقل إلى السؤال الثانى من اسئلتنا:

٢. هل الله له وجود عملى واضح فى حياتك؟

هل الله بالنسبة إليك هو مجرد فكرة؟! أم له كيان حقيقى تشعر به، وله وجود عملى فى حياتك؟ ما مدى احساسك بالله ووجوده وفاعليته فيك؟ من يكون الله بالنسبة إليك؟... إن سؤال المسيح لتلاميذه، ومازال قائماً أمامنا:

"من تظنون إنى أنا؟". ما هو الله فى مفهومك؟

وما نوع العلاقة التى تربطه بك؟ هل هى مجرد علاقة الطلب من جانبك، والعطاء من جانبه؟ هل الله هو مجرد (الصراف) الذى يقدم لك المال؟... أم هو الممون الذى يعطيك ما يلزمك من تموين؟ ام هو مجرد المعين الذى يقدم لك المعونة لراحتك؟ فإن كان لا يقدم هذه المعونة، أعنى إن كنت لا تشعر بهذه المعونة، فلا علاقة...! هل هو مجرد المنقذ الذى يحل مشاكلك؟ فإن بدا أنه لا يحلها، فلا علاقة...!

هل الله بالنسبة إليك مجرد وسيلة؟ أم هو غاية؟

هل هو مجرد وسيلة لتحقيق رغباتك، ولتكوين ذاتك؟ مجرد وسيلة للأخذ؟... وهل توجد علاقة تربطك بالله، خارج مجالات الأخذ منه؟ هل كلما تجلس الى الله أو كلما تتحدث إليه، إنما يكون ذلك بقصد أن تطلب منه شيئاً؟! أم أنت على العكس، تريد أن تقدم له شيئاً؟ تريد أن تعطيه قلبك، وأن تعطيه حبك، وأن تعطيه وقتك. وتقول له فى كل ذلك "من يدك أعطيناك"...

وإن أحببت أن تأخذ من الله: فهل ما تريد أن تأخده هو المتعة به ومحبته، أم عطاياه المادية وخيراته...؟... حقاً إن الله يصنع خيراً... ولكن:

هل أنت تحب الله أم خيراته؟ ذاته أم عطاياه؟

هل أنت تفرح بالرب حينما يعطيك شيئاً، ولا تفرح حينما لا تحس بعطائه؟ إذن فأنت تفرح بالعطية، وليس بالله معطيها! العطية هى هدفك، وليس الله!

متى تحب الله حينما يعطي، وحينما لا يعطي؟ آسف لهذا التعبير... اقصد متى تحب الله حينما يعطي، وحينما تظن أو لا تشعر أنه يعطي... فإن الله بطبيعته، دائماً يعطي، سواء أحسست أنت ذلك أو لم تحس...

صدقونى يإخوتى، لو أننا آمنا تماماً بأن الله يعطى باستمرار، ما كانت الحياة كلها تكفى لشكره...! إننا نعرف فقط عطاياه الظاهرة لنا. فماذا عن عطاياه الخفية؟ ذلك لأن الله إن كان قد أمرنا أن نعطى فى الخفاء، فهو ايضاً يعطى فى الخفاء... وإن بحثنا عن عطاياه الخفية، لوجدناها فوق ما ندرك، وفوق ما نتصور...

ومع ذلك، لنترك موضوع العطاء حالياً، فعلاقتنا بالله ينبغى ألا تبنى على العطاء.

ما هى علاقتك بالله إذن، خارج دائرة إحتياجك إليه؟

هل علاقتك به، هى علاقة خوف؟

هل أنت تسير مع الله، وتحاول أن تطيع وصاياه، خوفاً منه... هل أنت مجرد خائف من عقوبته ومن دينونته، خائف من اليوم الذى تقف فيه أمامه ويحاسبك، هل أنت خائف من رقابة الله عليك، هذا الذى يفحص الأفكار والنيات، ويرى ما فى داخل القلب، وما فى أعماق النفس، وليس شىء مستوراً عنه؟

لا يخاف من عقوبة الله إلا المخطىء. فهل أنت لا تزال فى هذه المرحلة، لم تتب بعد ولم تصطلح مع الله؟ وإن كان الكتاب قد قال "بدء الحكمة مخافة الله"، فهل أنت مازالت فى بداية الطريق، ولم تصل بعد إلى "المحبة التى تطرح الخوف الى خارج" كما قال الرسول (١يو ٤ : ١٨).

هل علاقتك بالله، هى علاقتك به كحاكم؟

هو بالنسبة إليك مجرد سيد، وأنت مجرد عبد. والله هو حاكم يحاكمك، يصدر لك أوامر ونواهى، تُسَمى الوصايا، وأنت مجبر أن تطيعه، فهو القوى الجبار الذى لا منقذ من يده، سواء اقتنعت بوصاياه أو لم تقتنع؟!

إن كنت هكذا، فأنت لا تزال تعيش فى عبودية الناموس، ولم تصل إلى حياة النعمة بعد... ولم تصل إلى النقاوة التى تحب بها وصايا الله، ولا تجدها ثقيلة... بل تقول مع داود "وصية الرب مضيئة تنير العينين" (مز ١٩)، "أحببت وصاياك جداً" (مز ١١٩). "كلماتك حلوة فى حلقى، أحلى من العسل والشهد فى فمى" (مز ١١٩). وأيضاً هل انت قد وصلت إلى الشعور بأبوة الله لك، على الأقل كلما تصلى وتقول "يا أبانا..."؟

ما هى علاقتك بالله؟ هل هى تحت الإختبار؟

هل انت لم تصل بعد إلى درجة الثقة بالله وبمحبته ومواعيده، فما تزال تختبر؟ تجربة فى هذا الموضوع أو ذاك، وترى كيف سيتصرف معك؟ وهل سيستجيب لك أم لا يستجيب، وتحدد علاقتك به على هذا الأساس! فتحبه، أو تغضب منه، أو تقاطعه وتقاطع كنيسته وكتابه، وتبدأ تشك فى ما تعرفه عنه من صفات..؟!

أنت تعرف أن الله محبة، هل تثق بذلك، وهل تؤمن أن كل أعماله من نحوك مملوءة حباً، مهما كان ظاهرها؟ ثم ما علاقتك أنت بهذه المحبة؟ هل يملأك الحب نحو الله ونحو الناس، فتشعر أن الله يعمل معك؟

الله أيضاً هو الحق. فما علاقتك بالحق؟ إن كنت بعيداً عن الحق، فأنت بعيد عن الله.

أعود إلى سؤالى مرة أخرى: ما علاقتك بالله؟

هل علاقتك بالله، فيها العشرة والحب والحياة فيه؟

هل تستطيع أن تقول عن الله، كما فى سفر النشيد " حبيبى لي، وأنا له" (نش ٦ : ٣). أنا أعرف أنك مؤمن بالله، على اعتبار أنه الخالق، والسيد، والراعي، والمدبر، والديان، وتنظر إليه هكذا. ولكن هل تنظر إليه أيضاً كمحب للبشر، وحبيب لنفسك بالذات؟ هو وصلت علاقتك بالله إلى مستوى الحب؟

هل محبتك لله، جعلته الأول فى حياتك، والوحيد؟

هل تقول لله فى مناجاتك: حينما عرفتك يارب، وذقت محبتك، تضاءلت أمامى كل العواطف الأخرى، وكل المحبات وجدتها خفيفة وسطحية. أما حبك فهو الوحيد الذى يصل إلى العمق.

وهل محبتك لله جعلتك تحب أن تجلس معه، وتحدثه، وأصبحت صلاتك كلها حباً، متأججة بعواطفك نحو الله. وبالمثل كل الوسائط الروحية الأخرى امتلأت من حرارة هذا الحب الإلهى، ولم تعد مجرد ممارسات روحية، إنما هى تعبير عما فى قلبك من عاطفة نحو الله... إن كنت هكذا فطوباك. وإن لم تكن هكذا، فاستيقظ لنفسك، لئلا يوبخك قول الرب "هذا الشعب يعبدنى بشفتيه، أما قلبه فمبتعد عنى بعيداً" (أش ٢٩ : ١٣).

إن الله لا يريد فى علاقته بك سوى هذا الحب.

إنه لم يطلب سوى هذا "يا إبنى أعطنى قلبك..."...

والسيد المسيح لما رأى بطرس الرسول بعد القيامة، لم يقل له لماذا أنكرت، أو كيف ضعفت؟ أو ماذا كنت تقصد بالسب واللعن وعبارة لا أعرف الرجل!... إنما سأله سؤالاً واحداً لا غير هو "أتحبني؟" (يو ٢١ : ١٥). فما أجاب بطرس "أنت تعلم يارب كل شيء، أنت تعلم إنى أحبك" حينئذ قال له الرب "إرع غنمى... إرع خرافى". إنه لا يريد سوى هذا الحب.

تداريب كثيرة، أم تدريب واحد؟

أتذكر بهذه المناسبة أنه وصلنى سؤال، يقول فيه صاحبة:

كلما أقرأ الكتاب المقدس، تتكشف لى فضيلة معينة، فأحاول أن أدرب نفسى عليها. ثم أقرأ مرة أخرى فتتكشف لى فضيلة ثانية، ثم ثالثة... إلى غير انتهاء. وأنا أحاول أن أدرب نفسى على كل هذه الفضائل العديدة... ولكنى فى حيرة شديدة من كثرتها. فانصحنى بماذا أبدأ؟ وماذا يمكننى أن أؤجله، لأننى من كثرة التداريب أنسى بعضها أو أنسى غالبيتها...!

والحقيقة إن محبة الله تشمل كل الفضائل...

إن تدرب الإنسان على محبة الله، يجد داخلها كل شيء.

إنها التدريب الوحيد الشامل، الذى إن أتقنته، لا تحتاج معه إلى تداريب روحية أخرى، على أن تكون محبة حقيقية عميقة، وبفهم... محبة يتعلق فيها القلب بالله، وينسى كل شيء ما عداه، ويفضله على كل رغبة وكل شهوة.

إن كل إنسان قد يقول "أنا أحب الله". وربما نسأله سوألنا السابق: حسن أن تحب الله. ولكن هل الله فى قلبك هو الأول، و هو الوحيد؟ هل محبة الله تشبع هذا القلب، فلا يحتاج إلى حب آخر إلى جوار الله؟ واضح أنها لو كانت محبة حقيقية، يشعر فيها الإنسان بالإكتفاء.

إن المحبة الحقيقية لله، تحرر القلب من كل شيء.

محبتنا لله، لها عمقها. وإن وصلت إلى عمق القلب، تطفو كل المحبات الأخرى على السطح، وتملك محبة الله كل القلب. وكل محبة لا تنبع من محبة الله، تخرج خارجاً، ويصير الله هو الكل. وبمحبة الله يتحرر الإنسان...

يتحرر من كل شهوة، ومن كل رغبة، ضد الله.

إن كل شهوة يتعلق بها الإنسان، تربطه بها، وتشده إليها. وبدلاً من أن يمسك هو بها، تمسك هى به. وكما يملكها تملكه. وبهذا يفقد جزءاً من حريته الحقيقية الداخلية، فيما هو مربوط بهذه الشهوة...

وكيف ينحل الإنسان من رباطات الشهوات والرغبات؟

ينحل منها، بمحبة أقوى، تستطيع إن دخلت القلب، ان تحل محل كل محبة أخرى، وتطردها إذ هى أعمق منها. ولا توجد محبة أقوى من محبة الله الحقيقية. إنها تحرر الإنسان من كل رغباته، فينحل من الكل، ليرتبط بهذه المحبة الواحدة.

ويرى أن كل ما هو خارج الله، ليس متعة.

يصير الله هو شهوة النفس، ولا شهوة غيره. لذلك قال أحد القديسين عن التوبة إنها إحلال حب محل حب، حب الله مكان حب العالم والجسد والمادة... فهل وصلت محبة الله فى قلبك إلى هذا المستوى؟ وهل حررتك من أغلال الرغبات.

حتى فى الأبدية: النعيم الأبدى هو الله...

لا يوجد نعيم أبدى سوى الله. وكل نعيم غير الله، ليس هو نعيماً حقيقياً... إن المتعة الدائمة الكاملة بالله، هى ما لم تره عين، و لم تسمع به أذن... هكذا هو الملكوت الحقيقي، أن نحيا مع الله، وفى الله، إلى الأبد، بلا عائق...

محبة الله تحرر الإنسان من الرغبات، وأيضاً من الخوف:

ونقصد بعبارة "من الرغبات" أنه لا تسيطر عليه أية رغبة وتستعبده. وكما قال القديس بولس الرسول "كل الأشياء تحل لي، ولكن لا يتسلط عليّ منها شيء" (اكو ٦ : ١٢). جميل هو مثل ذلك العصفور، الذى يجد مكاناً فيه حب كثير، فيلتقط منه واحدة أو أكثر، ويطير، دون أن يتعلق بهذا المكان. و لا يختزن، ولا يلتصق بهذه الحبوب...

والذى يحب الله لا يخاف. فالخوف متعلق أيضاً بالرغبات. إن الإنسان يخاف إن كانت هناك رغبة يخشى عدم الوصول إليها، أو هى معه ويخشى ضياعها. أما الذى حررته محبة الله، فمن أى شيء يخاف؟ وعلى أى شيء يخاف؟ لا شيء لكنه يشدو مع القديس أغسطينوس قائلاً: "جلست على قمة العالم، حينما أحسست فى نفسى أنى لا أشتهى شيئاً ولا أخاف شيئاً".

حينئذ يمتلئ قلبه قوة، ويقول مع بولس الرسول "من سيفصلنا عن محبة المسيح: أشدة أم ضيق أم اضطهاد، أم جوع أم عرى، أم خطر أم سيف؟... ولكننا فى هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذى أحبنا..." (رو ٨ : ٣٥ ، ٣٧).

إن أولاد الله أحرار من الداخل. حررتهم محبة الله، التى دخلت الى قلوبهم، ومنحتهم النقاوة والتجرد، ومنحتهم القوة والشجاعة. وقطعت من قلوبهم كل رباطات الرغبات، فتحرروا. صار كل منهم حراً، أكثر من شعاع الشمس، وأكثر من نسيم الهواء...

أيسألك أحد إذن: ما هو الله بالنسبة إليك؟

ولعلك تقول: هو الحبيب الذى "شماله تحت رأسى، ويمينه تعانقني" (نش ٢ : ٦) هو العشرة التى لا يمكننى الإستغناء عنها، لأن بها أوجد و أحيا وأتحرك... هو ليس فكرة، ولكنه كيان يسرى فى روحى وفى دمى وفى فكرى. هو بالنسبة لى كل شيء.

نعم أنت يارب العامل فىّ، وأنا لا أعمل. أنت المحرك لى وأنت الموجه. أنت تعمل معى، وتعملى بى، وتعمل فىّ... ربما لا أدركك، ولكنى أحسك، بإدراك روحى فى داخلى، لا يستطيع لسانى أن يعبر عنه. أنا أعرفك. ولكن ألفاظ اللغه أضعفت من أن تشرح هذه المعرفة.

أنت يارب لست خارجي، ولكنك فى داخلى.

عندما أذكرك، لست فقط أرفع نظرى إلى فوق، فأنت لست فقط فوق السماء، إنما أنت فى داخلى، ولست أفتش عنك فى الخارج... وصدق ذلك الأديب الذى قال "أغمضت عيني، لكى أراك". فأنت فوق الحواس، وأنا اتخلص من هذه الحواس قليلاً، لكى أجدك... أما إن انشغل عقلى بالحواس، بالنظر والسمع واللمس... فقد تعطلنى عنك. ليتنى يارب انسى الكل، وتبقى أنت وحدك تشبع حياتى.

إن مشكلة أبينا آدم هى الإضافات التى دخلت إلى قلبه وإلى فكره، إلى جوار ربه:

كان الله فى البدء، هو كل شيء فى حياة آدم.

أما فى خطيئته، فقد دخلت إلى قلبه أشياء أخرى.

قدم له الشيطان "المعرفة" لكى يحبها بدلاً من الله.

وقدم له "حب الــتأله"، وأغراه بأن يصير هو وحواء إلهين مثل الله (تك ٣ : ٥).

وقدم له "شجرة وثمر" ليأكل ... وأراه الثمر شهية للنظر، وجيدة للأكل، وبهجة للعيون. وهكذا أدخل إلى حياته شيئاً جديداً، هو متعة الحواس، وشهوة الجسد بالأكل.

الخلاصة أنه قدم له أشياء جديدة تغزو قلبه، وتستقر فيه إلى جوار الله، أو تأخد أهمية أكثر من الله، يضحى بالله من أجلها...! وهكذا لم يعد الله هو الكل بالنسبة إلى آدم، بل وجد له فى القلب ما ينافسه...!

صار الله بالنسبة إليه، واحداً من مجموعة!

لم يعد الله يمتلك كل المحبة داخل القلب، إذ دخلت إلى القلب ايضاً محبة المعرفة، ومحبة الــتأله، ومحبة الأكل، وشهوة الحواس.

وبإختصار، دخلت (الذات) لتنافس الله فى المركز وفى الأهمية...

وبتوالى الأيام والأجيال، دخلت إلى قلوب البشر أمور أخرى، على حساب مركز الله فى القلب. وكلما كثرت محبة هذه الأمور، قلت محبة الإنسان لله...

وكيف يكون العلاج إذاً؟ إنه بلا شك يكون فى ترك كل هذه الأمور الدخيلة.

فهل أنت مستعد أن تترك... من أجل الله؟

إن الشاب الغنى لم يستطع أن يترك أمواله الكثيرة، لذلك ترك الرب ومضى حزيناً...! وأبوانا الأولان آدم وحواء، لم يستطيعا أن يتركا إغراء المعرفة والألوهية، ففقدا صورتهما الإلهية... فهل تتعلم من هذا درساً فى الترك؟

إن لم تستطع أن تترك كل شيء من أجله، فهل يمكنك أن تبدأ بأن تترك العشور والبكور للرب؟ وهل يمكنك أن تترك الإنشغال يوماً فى الأسبوع لكى تتفرغ فيه للرب؟ وهل يمكن أن تترك بعض الملاذ التى تشغل قلبك، ليصير القلب صافياً لله؟ سهل عليك أن تفعل هذا. وسهل أن تترك بعض ألوان الطعام، لتعطى روحك فى الصوم فرصة ترتفع فيها فوق المادة والجسد، لتتصل بالله.

المهم أن تكون مستعداً، لأن تترك من أجل الله شيئاً.

إن كانت لله الأولوية فى قلبك، يمكنك أن تترك لأجله.

يمكنك أن تستغنى عن أى شيء، لأن كل شيء سيصغر فى قلبك إلى جوار الله وسيفقد قيمته... وستعلم تماماً أنك لابد فى يوم ما أن تترك كل شيء، بل تترك العالم كله، حين تفارقه. فالأفضل لك أن تتخلى عن أى شيء بإرادتك، قبل أن تتخلى عن الكل بغير إرادتك... وهذا هو الدرس الذى تعلمه القديس أنطونيوس حينما نظر إلى جثة أبيه وهو ميت...

إن الشيء الذى تتركه لأجل الله، إنما تبرهن بتركه على أن محبتك لله أكثر من محبتك لهذا الشيء. فإن تركت كل شيء وتبعت الله، إنما تبرهن أيضاً على أن محبتك لله، هى أعظم من كل شيء، وتغطى على كل شيء. وماذا أيضاً؟

إن أهم ما تتركه لأجل الله، هو [ذاتك].

كثير من الناس يركزون حول ذواتهم. الذات بالنسبة إليهم هى كل شيء، هى مركز التفكير، وهى محور التفكير. وإذا باهتمام الإنسان ينصب كلية على ذاته: ما هى حالتى الآن؟ وماذا أريد أن أكون؟ وكيف أكون؟ ومتى...؟ وما هى العوائق التى أمامى؟ كيف أنتصر؟ وكيف أنال، وأغلب، وأتفوق...؟ وكيف أكوِّن نفسى، وكيف أنميها.. مركزى، عملى، سمعتى، ماليتى، متعتى، لذاتى، حريتى، كرامتى... مع تفاصيل لا تنتهى.

وتصبح الذات صاحبة المركز الأول، وليس الله...

بل خلال تفكير الإنسان فى ذاته، وانشغاله بها، قد ينسى الله... أو لا يعطى الله وقتاً ولا اهتماماً، لأن الإهتمام كله مركز فى ذاته. بل ما اسهل أن يخالف الله ويكسر وصاياه، ليبنى ذاته ويسعدها بالطريقة التى يفهمها...!

وماذا كانت مشكلة (الوجوديين) سوى الذات؟

الوجودى يريد أن يشعر بوجوده، ويتمتع بهذا الوجود، حسب اتجاهاته الخاصة، بالإستغراق فى ملاذ العالم، والحرية الكاملة التى لا يقف أمامها عائق من قانون أو تقليد أو وصية إلهية...! وفى هذا يرى أن الله يحد من استباحة هذه الحرية، فيرفض الله من أجل الذات، لكى تتمتع ذاته بهذا الوجود، متعة ينطبق عليها قول الرب "من وجد نفسه يضيعها" (مت ١٠ : ٣٩).

وشعار الوجودى هو: من الخير أن الله لا يوجد، لكى أوجد أنا، وأتمتع بالوجود...!

وهكذا نرى أن الذات، قد ضيعت العلاقه مع الله.

إن مثال الوجوديين هو من أسوأ الأمثلة. وقد يشبههم الأبيقوريون الذين غايتهم هى اللذة، وشعارهم: لنأكل ونشرب، لأننا غداً نموت، أى لنمتع ذواتنا بما تشتهيه، قبل أن نموت. ومثلهم كل الذين سلكوا فى شهوات الجسد...

على أن هناك أمثلة أخرى، من جهة الذات وسيطرتها:

هيرودس الملك، الذى عاصر ميلاد المسيح، لم يفرح بالرب وبالخلاص الآتى، وإنما فكر فى ذاته، كيف يكون هناك ملك لليهود غيره. وقادته (الذات) إلى أن يأمر بقتل كل أطفال بيت لحم، ليخلو الجو له... بعيداً عن ملكوت الله! وهكذا لم يفرح بميلاد الرب، كما فرح به الرعاة والمجوس، الذين لم تكن الذات تعوقهم عن الله!

وهيرودس الملك، الذى قتل القديس يعقوب الرسول، والذى سجن بطرس... هذا لما جلس على عرشه، منتفخاً بحلته اللاهوتية، يكلم الشعب. وهم يمدحونه قائلين "هذا صوت إله، لا صوت إنسان"... هيرودس هذا، إذ اهتم بمجد ذاته، و لم يعط مجداً لله... أضاع نفسه، إذ ضربه ملاك الرب، فصار يأكله الدود ومات" (أع ١٢ : ٢١-٢٣).

بيلاطس أيضاً، إهتم بذاته، و لم يهتم بالمسيح. ومع تصريحه بأنه "لا توجد فيه عله تستوجب الموت"، إلا أنه حرصاً على مركزه، لئلا يغضب عليه قيصر بسبب إهامات اليهود، سلم البار للموت وهو حاكم بإطلاقه...! و لم يكتف بهذا، بل حاول أن يبرر ذاته ايضاً، فغسل يده وهو يقول "أنا برىء من دم هذا البار"!

وهكذا استطاعت الذات، أن تسقط الملوك والولاة، وتهلكهم!

والذات أيضاً أسقطت رؤساء الكهنة ومعلمى الشعب:

أولئك الذين أسلموا المسيح للموت حسداً، إذ خافوا على مراكزهم من شعبيته، وقالوا بعضهم لبعض "انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً. هوذا العالم قد ذهب وراءه" (يو ١٢ : ١٩).

ومن أجل الذات الى أتعبها الحسد، بعدوا عن الله تماماً، وهم رجال دين، فدفعوا مالاً ليهوذا لكى يخون معلمه، وأتوا بشهود زور لم تتفق أقوالهم، ولفقوا للسيد تهماً هم يعرفون زيفها. ودفعوا رشوة للجند، ليقولوا إن تلاميذه سرقوا الجسد ونحن نيام! كل ذلك فعلوه، وفقدوا الرب بسببه، حفظاً على الذات وعلى الرئاسة والشهرة!!

أما ملكوت الله فلم يفكروا فيه. وكذلك النبوات الخاصة بالخلاص والفداء، ما اهتموا بها. وتعليم الشعب وقيادته إلى الإيمان، أمر تجاهلوه تماماً! كل ما كان يشغلهم، هو ذاتهم، كيف تكبر أمام الناس، ولو بتحطيم هذا المنافس، ولو كان المسيا.

يبكت كل هؤلاء المعمدان، الذى انطلق من الذات...

كان كل اهتمام يوجه له، يتخلص منه، ويوجهه إلى المسيح، قائلاً: يأتى بعدى من هو أقدم منى، من هو أقوى منى، الذى لست أنا مستحقاً أن انحنى وأحل سيور حذائه...

وقال أيضاً: من له العروس فهو العريس... أنا صديق للعريس، أنظر من بعيد وأفرح. ينبغى أن ذاك يزيد، وإنى أنا أنقص (يو ٣ : ٢٩ ، ٣٠).

كانت كل الأمجاد تحيط بيوحنا المعمدان، لكنه لم يسمح أن تدخل إلى قلبه. لم تكن ذاته هى التى تشغله، بل كان يشغله الرب وحده، الذى جاء هو ليعد الطريق قدامه، لذلك كان المعمدان يخفى ذاته، ويقول عن السيد "الذى من فوق، هو فوق الجميع"...

محبة الذات تقود إلى الحسد. والحسد يضيع المحبة...

المحبة لا تحسد. وحينما يحسد الإنسان، يتمركز حول نفسه، ويفقد محبته نحو من يحسده. وإذا فقد المحبة، فقد الله، لأن الله محبة... بالحسد، أخوة يوسف باعوا أخاهم كعبد، وخدعوا أباهم. ولم يضعوا الله أمامهم. كل ذلك لأنهم أحبوا ذواتهم، ولم يقبلوا ، أن يكون يوسف أفضل منهم فى شىء...

إحترس من أن تنزع المحبة من قلبك بحسد، أو بغضب، لئلا تفقد الله، الذى لا يحل فى قلب خال من المحبة. وإن كنت لا تستطع أن تحب أخاك الذى تراه، فكيف ستحب الله الذى لا تراه؟! (١ يو ٤ : ٢٠).

الذات تريد أن تكبر، كما تريد أن تلتذ وتتمتع...

والذات فى محبتها أن تكبر، تضيع الله من قلبها...

ولعل أبرز مثال لذلك هو سقطة الشيطان، الذى قال فى قلبه "أصعد إلى السموات، أرفع كرسىّ فوق كواكب الله... أصعد فوق مرتفعات السحاب. اصير مثل العلىّ (أش ١٤ : ١٣ ، ١٤). فكانت النتيجة أنه انحدر إلى الهاوية.. لقد أرادت ذاته أن تكبر، إلى حد أنها نافست الله نفسه فى جلاله الإلهى!

ومن الذين ضيعهم كبر الذات، بناة برج بابل...

أرادت ذاتهم أن تكبر، بحيث ترتفع عن مستوى الذين يعيشون على الأرض. وهكذا قال هؤلاء "هلم نبنِ لأنفسنا مدينة، وبرجاً رأسه فى السماء، ونصنع لأنفسنا إسماً..." (تك ١١ : ٤). فكانت النتيجة أن الله بلبل ألسنتهم وشتتهم. وهكذا كل من أراد أن يرفع ذاته، يوضع إلى أسفل، ويفقد الله.

أما الذى يضع أمامه عظمة الله غير المحدودة، فإن ذاته تصغر فى عينيه ويرى أنها مجرد تراب ورماد. فتنسحق ذاته، وفى انسحاقها يرفعها الله، إليه...

والعجيب أن حرب الذات هذه، حاربت القديسين...

آباؤنا الرسل الإثنا عشر، حاربتهم الذات أيضاً! وفكروا من يجلس عن يمين الرب وعن يساره، ومن يكون الأول فيهم؟! والرب الذى يعرف أن الذات تبعد الإنسان عن الله، قال لهم: لا يكن فيكم هذا الفكر. من أراد فيكم أن يكون أولاً، فليكن آخر الكل وعبداً للكل. وأعطاهم مثلاً، حينما انحنى وغسل أرجلهم. ولما ظهرت ذاتهم فى فرحهم

بإخراج الشياطين، وقالوا "حتى الشياطين تخضع لنا بإسمك" قال لهم الرب "لا تفرحوا بهذا". الفرح لا يكون بالذات، إنما بالإلتصاق بالله ومحبته. وبهذا تكتب أسماؤهم فى ملكوت الله.

إن الذات كما حاربت الرسل، حاربت نبياً عظيماً كيونان...

كانت تهمه ذاته، ويهمه أن كلمته لا تنزل إلى الأرض. لذلك لما أمره الله أن ينادى على نينوى بالهلاك، وهو يعرف انه غفور سيرحم، هرب من وجه الله وخالفه. وهكذا اصطدم بالله من أجل ذاته...!

ولما خرج من بطن الحوت، ونادى على نينوى، فتابت ورحمها الله وغفر لها، لم يفرح بهذا الخلاص العظيم، إنما كان مركزاً حول كرامته، حول ذاته، حول كلمته التى قالها و لم تنفذ. وجلس حزيناً. حتى أن الله قال له "هل اغتظت بالصواب؟" فقال "إغتظت حتى الموت". وبهذا كانت مشيئة يونان ضد مشيئته. وكانت عواطفه عكس عواطف الله. وكل ذلك بسبب تمركزه حول ذاته! ولولا أن الله بحث عن هذا النبى، وأصلحه وصالحه، لضاع هو أيضاً...!

أن السيد المسيح أعطانا مثالاً فى التخلى عن الذات...

ففى تجسده، نرى هذه العبارة العجيبة، إنه "أخلى ذاته". وإلى أى حد أخلاها؟ إلى حد أنه "أخذ صورة العبد"... وماذا أيضاً؟ وأطاع حتى الموت موت الصليب" (فى ٢ : ٧ – ٩).

وعلى الصليب، قدم هذه الذات أيضاً ذبيحة محرقة لإرضاء الله الآب وإيفاء عدله الإلهى. وقدمها أيضاً ذبيحة خطية لكل يخلص البشرية التى حمل خطاياها، ومن أجلها "أحصى بين أثمة".

وفى خلال فترة تجسدة على الأرض، قال للآب "لتكن لا مشيئتى، بل مشيئتك" مقدماً ذاته بالكلية على مذبح الطاعة.

إخلاء الذات تعلمه بولس الرسول من السيد الرب، حينما قال "لأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فىَّ" (غل ٢ : ٢٠).

من يستطيع أن يقول مع القديس بولس "لا أنا"...

لذلك ليتنا نعيد النظر فى علاقتنا بالله ونقييمها. ونحاول ان يكون الله بالنسبة إلينا هو الكل. له كل عواطفنا، وكل قلبنا وحبنا، تتركز فيه كل آمالنا، ونفضله على كل شىء، ونجد لذتنا فيه. فنتغنى مع أرمياء النبى ونقول "نصيبى هو الرب، قالت نفسى. من أجل ذلك أرجوه" (مرا ٣ : ٢٤).

[٢]

"نصيبى هو الرب

قالت نفسى" (مرا ٣ : ٢٤)

الفهرس

"نصيبى هو الرب قالت نفسي".

كلنا نحب هذه العبارة الجميلة، ونحفظها ونرددها. ولكن من منا ينفذها ويحياها؟ ومن منا يتخذها مبدأً روحياً يغنيه عن وصايا كثيرة.

هل تقبل ان يكون الرب هو نصيبك من هذه الحياة كلها؟

هناك من يرى أن نصيبه فى الحياة هو البيت والأسرة والزوجة والأولاد، ونصيبه هو المركز، المال والشهرة والوظيفة والسلطة...

ولا مانع من أن يضاف الله إلى كل هذا...!

ولكن ان يكون الله وحده هو نصيبه (مز ١٦ : ٥)، ويكتفى به، ولا يعوزه معه شيء (مز ٢٣ : ١)... ويتغنى ويقول "حظى انت يارب" (مز ١١٩ : ٥٧) أى نصيبي... فهذا أمر ليس سهلاً على كل أحد أن يقوله، وليس سهلاً على كل أحد أن يحياه...

ومع ذلك فقد أعطانا الله أمثلة له في كتابه المقدس.

أعطانا الرب مثلاً لهذا، فى كهنة العهد القديم:

وليس الكهنة فقط، إنما كل سبط لاوى، الذى كان يتفرغ لخدمة الرب. لقد وزعت الأنصبة على كل الأسباط. ولكن "لم يكن للاوى قسم ولا نصيب مع أخوته. الرب هو نصيبه، كما كلمه الرب" (تث ١٠ : ٩).

لذلك صار إسمهم (الإكليروس) أي النصيب، لأن الرب هو نصيبهم، وهم أيضاً نصيب الرب. وكان الرب يكفيهم، فلم يعوزهم شيء. وصارت حياتهم نصيباً للرب، لا تشغلهم أرض، ولا أملاك، ولا عمل آخر سوى عمل الرب...

فهل أنت كذلك؟... نصيبك الرب؟ إن لم تكن من المكرسين للرب، فعلى الأقل إختبر علاقتك بالله فى ضوء الأمثلة الآتية:

١- إن لم تكن حياتك نصيباً للرب، فهل يوم السبت نصيبه؟

إن كنت لا تعطى الحياة كلها للرب، فهل تعطيه هذا اليوم الواحد من كل أسبوع؟ هل تقدس يوم الرب، يوماً للرب كل أسبوع، عملاً من الأعمال لا تعمل فيه حسب وصية الرب (تث ٥ : ١٤). هل تخصصه للصلاة والتأمل والقراءة الروحة، وخدمة الرب، والتمتع به؟ أم أن لك اهتمامات أخرى تشغلك؟

إن كنت لا تقدم هذا اليوم الواحد للرب، فهذا اعتراف ضمنى أن الرب ليس هو نصيبك بالتمام... لو كان نصيبك، لاستطعت بطريقة ما أن توجد له وقتاً، وأن تتحكم فى مشغولياتك، ويكون اليوم يوم الرب.

٢- إختبار آخر لنصيب الرب فيك، هو الصلاة...

إن كنت لا تواظب على الصلاة، فذلك لأن الرب ليس هو نصيبك، ليس هو الذي يشبعك ويملأ قلبك!

لهذا حينما تقف للصلاة، تجد عشرات الأفكار تقف أمامك، وتجدها كلها مهمة جداً، وتعجبك، فتفكر متى تنتهى من الصلاة، لكى تتفرغ لهذه الأمور التى قد تعتبرها للأسف أهم من الصلاة!... لو كانت هذه المسائل مجرد محاربات من العدو، لكنت تتضايق منها، وتستمر في الصلاة التى تجد فيها لذتك. أما إن كانت هذه الأمور تشدك، وبعنف، فتسرع فى صلاتك و تنهيها، بسبب هذه الإهتمامات... فهذا دليل على أن الله لم يصر نصيبك بعد... أما الذى يكون الرب ننصيبه، فإن وقف للصلاة، لا يحب أن يتركها، بل هى تشمل كيانه كله، وتستوعبه. وكل الإهتمامات الأخرى، ينساها. وإن تذكرها تبدو تفاهات أمامه، لا تستحق أن تشغل قلبه، أو أن تشغل فكره...

وهنا ننتقل إلى نقطة ثالثة، فى اختبار نصيب الرب:

٣- الذى يكون الرب نصيبه، يجد متعة في الله ولذة...

إنه يفرح بالرب، ويجد متعة فى الجلوس معه، ولذة في محادثته، ويقول مع داود النبى "باسمك أرفع يدى، فتشبع نفسى كما من شحم ودسم" (مز ٦٢).

وفرح الإنسان بالله، يدفعه إلى أن يخصص لله وقتاً أكثر، وأن يدخله فى العمق، عمق قلبه، وعمق حبه، وعمق تفكيره واهتماماته...

على أن البعض قد يجدون فرحاً بأمور العالم، ولذة فيها، بمستوى لا يتوافر فى علاقتهم بالله. وهذا يدل على أنهم لم يتخذوا الرب نصيباً لهم...

إن كان الأمر هكذا، فلنسأل: ما هى علاقتك بالله؟ هذا إن كانت لك علاقة به فعلاً... وأين الله منك؟ ما مدى وجوده فيك؟

هل هو على هامش حياتك؟ أم هو في صميم حياتك؟

أم هو حياتك كلها؟ ماذا تراه يكون بالنسبة لك؟

هل هو أمل من آمالك الكثيرة؟ أم هو كل آمالك؟

هل هو جزء من مشغولياتك؟ أم هو كل ما يشغلك؟

هل الله بالنسبة إليك نظرية قرأتها في الكتب؟ أم هو مجرد تعليم تعلمته في الكنيسة؟ أم أنه يمثل كياناً عملياً فى حياتك؟

كن صريحاً مع نفسك، ولا تخدع ذاتك...

أقول هذا، لأن البعض قد يصلى، والله على جانب حياته، وليس في العمق. وقد يصوم هذا الإنسان، ويتناول، ويمارس كل الوسائط الروحية، ومع ذلك لا يزال الله على جانب حياته...!

فمتى يصير الله هو الحياة كلها؟ ومتى نقول مع بولس الرسول:

"لى الحياة هى المسيح" (فى ١ : ٢١)

البعض حياتهم هى الأسرة والمركز والمال و الزواج والأولاد، ومتع الرفاهية، فإن لم يكن له كل هذا، يقال عنه إنه لم يدخل الدنيا بعد، و لم يتمتع بالحياة، ومازال على الهامش. يقولون عنه بالعامية "فلان ده مش عايش".

أما الذى يقول "لى الحياة هى المسيح" فإنه يستطيع أن يقول بعدها "والموت هو ربح"...

يستطيع أن يقول "لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح، فذاك أفضل جداً" (فى ١ : ٢٣). بل يستطيع أن يقول أيضاً "من سيفصلنا عن محبة المسيح؟! أشدة أم ضيق أم اضطهاد، أم جوع أم عرى، أم خطر أم سيف؟... ولكننا فى هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذى احبنا" (رو ٨ : ٣٥ ، ٣٧).

٤- هناك اختبار آخر تستطيع ان تختبر به مدى علاقتك بالله، وذلك في ضوء الوصية التى تقول:

"تحب الرب إلهك من كل قلبك..." (تث ٦ : ٥).

قد تحب الله من قلبك، هذا جائز. ولكن هل أنت تحبه من **كل** قلبك؟ أى هل تعطى القلب كله له، والحب كله له؟ من منكم استطاع أن ينفذ هذه الوصية؟

من الذى كل مشاعره وعواطفه مركزة فى الله؟ هو نصيبه هنا على الأرض، وهو نصيبه أيضاً فى الأبدية. وهو الذى يملأ حياته وفكره وقلبه...

إن كان الله قد ملك على كل قلبك، فإن العالم كله يصبح بالنسبة إليك وكأنه "صفيحة زبالة"، كومة من القمامة لا قيمة لها... وتنظر إلى كل متع العالم، كما نظر إليها سليمان الحكيم من قبل، فقال "باطل الأباطيل، الكل باطل وقبض الريح" (جا ١ : ٢ ، ١٤)... المال، الجاه، السلطان، الألقاب، الشهرة... الكل باطل... الجمال، المظهر، العظمة، المتعة، البيت، الأولاد... الكل باطل...

ويصبح الله هو الكل، ولا شيء إلى جواره.

إهدأ إذاً إلى نفسك، وافحص علاقتك بالله جيداً:

ما موقعك، وما موضعك، على خريطه الله...؟!

وما هو مركز الله فى حياتك وفى شعورك؟ قل لنفسك: هل الله يشبعنى الإشباع كله، بحيث يمكننى أن أكتفى به، وأكون سعيداً فى اكتفائى، لا اشعر بشيء ينقصنى؟ هل أنا فرح القلب بالرب، سعيد أنى وجدته؟ أغنى له فى كل يوم أغنية جديدة... هل إسم الرب محبوب فى فمى؟

هل الرب هو أحلامى بالليل، وآمالى في النهار؟

هل هو عاطفتي الملتهبة؟ هل هو سبب خفقات قلبى؟ هل هو حياتى؟ هل هو بدل ذاتى بالنسبة لى؟ ما مركزه بالضبط داخلى؟

أنت محتاج بين الحين والآخر أن تراجع نفسك، وترى أين أنت سائر، وهل لك هدف، وهل هدفك هو الله؟ وهل هو نصيبك حقاً الذى ارتضيت به؟ وهل هو كذلك على الدوام؟ أم بين الحين والحين، تبرز إحدى الرغبات لكى تأخذ مكان الله فى قلبك، وتصير هى نصيبك فى الحياة، ولو لفتره معينة...؟!

أنظر إلى داود، لترى ماذا كان الله بالنسبة إليه:

إنه يقول "قوتي وتسبحتى هو الرب" (مز ١١٨). ويقول "الرب راعىّ فلا يعوزنى شيء" (مز ٢٣). الرب إذن هو قوته وتسبحته وراعيه. وماذا أيضا؟ يقول "إلهنا ملجأنا وقوتنا، ومعيننا فى شدائدنا التى أصابتنا جداً" (مز ٤٥). ويتابع الكلام فإذا الله حصنه، وترسه، ومجنه، وهو ربه وإلهه، بل أنه يذوق الرب، وينظر ما أطيبه... الله بالنسبة إليه هو كل شيء.

وكل الذين اتخذوه نصيبهم، يجدونه لهم كل شيء.

إنهم لا يقاتلون، فالكتاب يقول لهم "الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون" (خر ١٤ : ١٤).

وهم لا يتكلمون من أنفسهم، بل روح أبيهم هو الذى يتكلم فيهم (مت ١٠ : ٢٠). وهو يعطيهم فماً وحكمة، لا يستطيع جميع معانديهم أن يقاوموها (لو ٢١ : ١٥). هو الذى يقودهم فى موكب نصرته (٢كو ٢ : ١٤)، وهو الذى يظلل عليهم بجناحيه، هو الأب، وهو الحبيب، وهو الصديق، وهو الرفيق في الطريق...

هو القلب الوحيد، المضمون فى حبه وإخلاصه...

قد لا نضمن عواطف ومشاعر كل من نخالطهم من الناس، ولا نضمن إخلاصهم فى كل الظروف، ولا ثباتهم فى محبتهم، فقد يتركون محبتهم الأولى...

أما الله فهو الوحيد المضمون، الذين إن كنا نحن غير أمناء من نحوه، يبقى هو أميناً (٢تي ٢ : ١٣)... إن نسيت الأم رضيعها، فهو لا ينسانا، هذا الذى قد نقشنا على كفه، وحتى جميع شعور رؤوسنا محصاه عنده، لا تسقط واحدة منها بدون إذنه... كيف لا نحب إلهاً مثل هذا، ليس له شبيه بين (الآله)...؟!

هل الله هو مصدر الخيرات، أم هو الخير؟

المبتدئ في الحياة الروحية وفى العلاقة مع الله، قد ينظر إلى الله على اعتبار أنه مصدر الخير، وهو كذلك فعلاً مصدر كل الخيرات، ولكن الذى صار الله نصيبه، يرى أن الله هو الخير ذاته، وهو الخير الوحيد... إنه لا يبحث عن النعيم خارجه، أو كمكافأة منه، إنما يرى ان الله هو النعيم الحقيقى الذى نتمتع به.

إنه كل شئ فى الأبدية. وليست الأبدية نعيماً سواه.

إنه شجرة الحياة التى نتغذى بها، وهو المن المخفى، هو خبز الحياة، هو ماء الحياة الذى كل من يشرب منه، لا يعطش إلى الأبد. هو الحياة ذاتها، من يثبت فيه يثبت فى الحياة. وهو الحق، من يعرفه يعرف الحق، والحق يحرره. هو النور الحقيقى الذى ينير لكل إنسان، وهو الحكمة، وهو المتعة الحقيقة.

إن الله سوف لا يمنحنا شيئاً معيناً يسعدنا في الأبدية، إنما هو نفسه الذي يسعدنا. وكل من يقترب منه، يقترب من السعادة، ومن يذوقه يذوق السعادة والحب...

أترانا، حتى فى الأبدية، سننشغل بشيء غير الله، أو يسعدنا شيء غير الله؟! حاشا، فالله الذى اخترناه نصيبنا هنا، سيكون هو نصيبنا أيضاً هناك...

أما كيف تكون متعتنا الدائمة به، فهذا سر الملكوت...

هذا هو "ما لم يخطر على قلب بشر"، لأن كل ما نتمتع به على الأرض فى صلتنا بالله ومذاقتنا له، سوف لا يقاس مطلقاً بالمجد العتيد أن يستعلن فينا، حينما عرفه المعرفة الحقيقية وننمو كل حين فى معرفته، فقد قال الإبن للآب "هذه فى الحياة الأبدية، أن يعرفوك..." (يو ١٧ : ٣).

إن كان الله هكذا هو نصيبك، فلا يمكن أن تخطئ...

إن كان الله مالئاً كل قلبك وفكرك، وإن كان هو كل حبك وكل هدفك، فكيف يمكن إذن أن تخطيء؟!... أمر غير معقول، لأن الخطية هو انحراف عن محبة الله، إلى محبة أخرى ضده. ولكن إن كان هو نصيبك، وهو كل هدفك

وآمالك، وهو كل اشتياقات قلبك، إذن لا تستطيع حينئذ أن تخطئ، والشرير لا يمسك. بهذا أولاد الله ظاهرون (١يو ٣ : ٩، ١٠).

إن محبتك لله، لا تعطى مجالاً إطلاقاً لأية خطية. وهنا لست محتاجاً إلى تداريب كثيرة على وصايا عديدة. تكفيك محبته، فهى تدريبك الوحيد.

وهنا يظر الفرق بين الناموس والنعمة...

الذى مازال تحت الناموس، يجاهد بكل قوة لكى ينفذ الوصية. أما إن دخل فى نطاق الحب الإلهى، وصار الله نصيبه، حينئذ يحرره الحب من عبودية الناموس. فيفعل كل خير من خلال محبته لله. ومن خلال محبة الله، يحب الفضيلة أيضاً، ويحب الوصية، ولا تصير وصايا الله ثقيلة عليه، ولا تحتاج منه إلى مجهود...

إن النعمة لم تلغ الوصية، و لم تلغ الناموس. ولكن كل الوصايا قد دخلت في دائرة الحب، وأصبح تنفيذها في مجال التعبير عن هذا الحب، و لم تعد أوامر ونواهى. فالرب يقول "من يحبنى، يحفظ وصاياى". شئ طبيعى من نتائج الحب.

وهكذا صار الله نصيبك، ولا تعرج بين الفرقتين...

لا تكن مع الله في يوم، وبعيداً عنه فى يوم آخر. فالقلب الثابت فى الحب، لا يتزعزع، ولا ينحرف، ولا يتحول عن هدفه الإلهى. ولذلك يقول لنا الرب "إثبتوا فى محبتى" (يو ١٥ : ٩)، "إثبتوا فىَّ، وأنا فيكم، كما يثبت الغصن في الكرمة، ويأتى بثمر" (يو ١٥).

فهل أنت تشبه هذا الغصن الثابت في الكرمة...

هذا الغصن الذى تسرى عصارة الكرمة فى عروقه وتعطيه الحياة، وبهذا الثبات يشابه الكرمة فى كل شيء، ويعطى ثمر الكرمة ذاتها...

هذا الغصن صارت الكرمة نصيبه، إن انفصل عنها، إنفصل تماماً عن الحياة، وجف ومات وإلقى إلى الحريق. أما فى ثباته فى الكرمة، فإنه ينتعش ويحيا، وينمو أيضاً. وهكذا قال الرب "أنا الكرمة وأنتم الأغصان" (يو ١٥ : ٥).

وبهذا إن كان الله نصيبك، فإنه يكون داخلك...

مثل عصارة الكرمة التى تكون داخل الغصن. ومثلما قال الرسول "أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله ساكن فيكم" (١كو ٣ : ٦). وإن كان الله فيك، فلست تبحث عنه خارجاً... إن قيل لكم إنه هنا أو هناك، فلا تصدقوا (مت٢٤). إنه داخلكم "أنا فيكم" (يو ١٧ : ٢٣).

يامن اتخذت الله نصيباً، هل تحس بوجوده فيك؟

هل أنت ثيئوفورس، أي حامل الله؟

هكذا تلقب القديس أغناطيوس الأنطاكى، وهكذا كل مؤمن حقيقى يسكن الله فى قلبه، ويشعر بسكنى الله فيه، حيثما أقام وحيثما هب... إنه حامل الله.

ليتك تصلى إذن، وتقول للرب: فلتكن أنت ياربى هو نصيبى الوحيد، ولا نصيب لى غيرك. خذ كل ما عندى، وأعطنى ذاتك، أعطنى فضل معرفتك. لست أريد أن أطلب منك طلبات كثيرة، فأنا أريدك أنت وحدك. أريد أن يفقد كل شئ قيمته فى نظرى، وتبقى انت القيمة الوحيدة التى أهتم بها. فأحبك أنت الإله الساكن فى قلبى، وليس مجرد الله الذى أقرأ عنه فى الكتب...

أمثلة من القديسين الذين اتخذوا الله نصيباً لهم:

أ- بطرس الرسول في قوله "تركنا كل شئ وتبعناك" (مت ١٩ : ٢٧)، معبراً عن حالة الرسل كلهم، الذين تركوا أهلهم وبيوتهم وعملهم، وساروا وراء الرب، الذى صار نصيبهم...

ب- بولس الرسول صار أيضاً واحداً من هؤلاء، فى عبارته الجميلة "خسرت كل الأشياء، وأنا أحسبها نفاية، لكى أربح المسيح، وأوجد فيه" (فى ٣ : ٨). كل شيء فقد قيمته إلى جوار الرب في نظر بولس، لذلك قال "ما كان لى ربحاً، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة. بل إنى أحسب كل شئ أيضاً خسارة، من أجل فضل معرفة المسيح ربي" (فى ٣ : ٧).

ج- وهذا ما يقوله المزمور لكل نفس صارت عروساً للرب "إسمعى يا إبنتى وانظرى وأميلى أذنك، وانسى شعبك وبيت أبيك، فإن الرب قد اشتهى حسنك وله تسجدين" (مز ٤٥ : ١٠).

د- وكانت أمنا رفقة، التى تركت بلاد أهلها، وسافرت مع ألعازر الدمشقى، لتحيا مع اسحق، رمزاً للنفس البشرية التى تترك كل شئ لتحيا مع المسيح، كنصيب لها...

هنا ونتذكر عبارة جميلة قالها داود النبى وهى:

"معك لا أريد شيئاً على الأرض" (مز ٧٣ : ٢٥).

[٣] معك لا أريد شيئاً على الأرض

(مز ٧٣ : ٢٥)

الفهرس

الذى يحب الله بعمق، يصل إلى درجة الإكتفاء بالله...

الله يملأ قلبه وفكره وكل أحاسيسه ومشاعره، ويشبعه، فيشعر بالإكتفاء، ويقول مع داود "فلا يعوزنى شئ" (مز ٢٣ : ١)... ويشعر أنه لا يستطيع أن يضيف شيئاً فى قلبه إلى جوار الله. فيعيش سعيداً مع الله، ويقول له فى حب "معك لا أريد شيئاً على الأرض". بهذا المثل عاش آباؤنا القديسون، وقد أشبع الله حياتهم.

١-ولنأخذ داود النبى كمثال:

كان ملكاً، بكل ما يحيط من الملك من سلطة وعظمة فى ذلك الزمان. وكان قائداً للجيش، وقاضياً للشعب، رب أسرة كبيرة. وكان محترماً من الكل، ومسيحاً للرب. ويبدو أنه ما كان ينقصه شئ من خيرات الدنيا ومتعها... ومع ذلك ما كان شئ من هذا يشبع قلبه حقاً، بل يلقى بكل هذا وراء ظهره ويقول:

"واحدة طلبت من الرب وإياها ألتمس..." ما هى الواحدة التى تنقصك أيها الملك العظيم مسيح الرب؟ يقول "واحدة طلبت من الرب وإياها ألتمس، أن أسكن فى بيت الرب... وأتفرس فى هيكله" (مز ٢٧ : ٤)... هناك فى هذا الموضع المقدس، كان يطلب الرب ويقول:

"طلبت وجهك، ولوجهك يارب ألتمس. لا تحجب وجهك عن" (مز ٢٧ : ٨ ، ٩).

أهذه طلبتك الوحيدة؟ وماذا عن الملك والجيش والقضاء والأسرة والغنى؟ كلا يارب، معك لا أريد شيئاً على الأرض "يالله أنت إلهى إليك أبكر، عطشت نفسى إليك" (مز ٦٣ : ١) "إلتصقت نفسى بك"، "باسمك أرفع يدى، فتشبع نفسى كما من شحم ودسم"، "رحمتك أفضل من الحياة. شفتاى تسبحانك"، "كنت أذكرك فى فراشى، وفى أوقات الأسحار كنت أرتل لك" (مز ٦٣).

إنه الحب الذى يملأ القلب، يقول فيه:

"محبوب هو إسمك يارب، فهو طول النهار تلاوتى" (مز ١١٩).

وماذا عن مشغولياتك يا داود؟ إنها لا تشغلنى عنك يارب. "سبع مرات فى النهار سبحتك على أحكام عدلك" (مز ١١٩)، "فى نصف الليل نهضت لأشكرك"، "سبقت عيناى وقت السحر لأتلو فى جميع أقوالك"، "كلماتك حلوة فى حلقى، أحلى من العسل والشهد فى فمى" (مز ١١٩).

حقاً إن الذى يحب الله، يصغر كل شئ فى عينيه...

إن داود لا يغريه قصره ولا عرشه، بل يقول للرب "مساكنك محبوبة أيها الرب إله القوات. تشتاق وتذوب نفسى للدخول إلى ديار الرب... طوبى لكل السكان فى بيتك، يباركونك إلى الأبد" (مز ٨٤ : ١-٤)، "فرحت

بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب" (مز ١٢٢ : ١)، "إخترت لنفسى أن أطرح على عتبة بيت الرب" لماذا؟ "لأن يوماً صالحاً فى ديارك خير من آلاف" (مز ٨٤ : ١٠).

حقاً "معك لا أريد شيئاً على الأرض"... إن هذه العبارة هى اختبار حقيقى للقلب ومدى علاقته بالرب. لنأخذ مثلاً آخر:

-أبونا إبراهيم، بهذا الإختبار كانت دعوته...

لما دعاه الله، قال له "إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك، إلى الأرض التى أريك" (تك ١٢ : ١). وترك إبراهيم وطنه وعشيرته وبيت أبيه، وقال للرب في قلبه "معك لا أريد شيئاً على الأرض". وخرج وراء الرب، هو كما يقول الرسول "لا يعلم إلى أين يذهب" (عب ١١ : ٨)، يكفيه أنه كان ذاهباً وراء الرب.

لم يكن يهتم بالمكان الذى يذهب إليه، ما هو وأين هو، إنما كان تفكيره فى الرب الذى يذهب معه.

لما صحبه تارح أبوه، تعطل بسببه بعض الوقت فى حاران (تك ١١ : ٣١). ولما صحبه لوط إبن أخيه، حدثت مخاصمة بين رعاة هذا وذاك. ولما فارقه واختار أخصب أرض في المنطقه بدأت البركه تتضاعف على ابرآم.

كيف تعيش يا إبرآم، وقد أخذ لوط أرضاً "كجنة الله كأرض مصر" (تك ١٣ : ١١). وترك لك القفر؟ يقول إبرآم: أنا مع الله، لا أريد شيئاً على الأرض. يكفيني الرب ونعمته. وفعلاً باركه الرب، وقال له "إرفع عينيك وإنظر.. جميع الأرض التى أنت ترى، لك أعطيها.." (تك ١٣ : ١٤ — ١٧). وعاش ابرآم غريباً، عقيماً، ولكن مع الرب. غربته كانت تتمثل فى حياة الخيمة، وعلاقته بالرب كانت تتمثل فى المذبح الذى يبنيه فى كل موضع.

وهذا الرجل الغريب، المكتفى بالرب، هو الذى خلص لوطاً من السبى (تك ١٤)، واستقبله ملك سدوم، وملك ساليم، ملكى صادق الذى باركه (تك ١٤ : ١٨).

ولكن هل حدث فى وقت ما، أن مبدأ "معك لا أريد شيئاً على الأرض" إهتز في قلب أبينا إبرآم ولو قليلاً؟ نعم، حدث أنه اشتهى أن يكون له إبن...

ولما اشتهى أن يكون له إبن، وقع فى تجارب...

تجربة هاجر (تك ١٦)، وتجربة قطورة (تك ٢٥). وحتى لما ولد له إسحق من سارة، أتته تجربة أخرى، إذ اختبر الله فيه، وقال له "يا إبراهيم... خذ إبنك وحيدك الذى تحبه، إسحق... وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك" (تك ٢٢ : ٢). وإذا إبراهيم الذى عاش بمبدأ "معك لا أريد شيئاً على الأرض"، إبراهيم الذى يحب الله

الحب كله، أخذ إسحق إبنه، وبكر صباحاً جداً، وأخذ معه الحطب والسكين. وربط إبنه فوق الحطب، ورفع السكين ليقدمه ذبيحة... لذلك بارك الله هذا الإنسان الذى أحبه أكثر من إبنه الوحيد، وبنسله تباركت جميع قبائل الأرض.

كان قلب إبرآم مركزاً فى الله، أكثر مما فى إسحق...

قال السيد المسيح "... من أحب إبناً أو إبنة أكثر منى، فلا يستحقنى" (مت ١٠ : ٣٧)، ونفذ أبونا إبراهيم هذه الوصية قبل أن يقولها المسيح بأجيال طويلة...

كان الله بالنسبة إليه أكثر من العشيرة والوطن والأهل والإبن الوحيد... إنها فضيلة للإنسان أن يحب أهله، ولكنهم لا يكونون شركاء الله فى قلبه.

داخل محبة الله، نعم. ولكن إلى جوارها، لا...

الإنسان الروحى يحب جميع الناس كجزء من محبته لله. ولكنه لا يحب أحداً، ويشارك الله فى حبه، أو ينافس الله فى حبه، أو يجلس فى القلب إلى جوار الله!

الله لا ينافسه أحد فى الحب، ولا ينافسه شئ...

ولذلك فالمحبة الحقيقية نحو الله يلزمها التجرد. وفى هذا قال الكتاب "لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم. إن أحب أحد العالم، فليست فيه محبة الآب... والعالم يمضى وشهوته معه" (١يو ٢ : ١٥ ، ١٧). وقيل ايضاً "محبة العالم عداوة لله" (يع ٤ : ٤)، لا يستطيع أحد أن يعبد ربين أو يخدم سيدين. إما الله، وإما العالم... وقد قال الكتاب فى ذلك:

"أية شركه للنور مع الظلمة" (٢ كو ٦ : ١٤).

الله هو النور الحقيقى. وكل ما هو خارج الله ظلمة. كل ما يتعارض مع الله ومحبته ظلمة. ونحن قد دعينا أن نكون أبناء النور، لا نشترك فى أعمال الظلمة...

والظلمة متفاوته فى درجاتها، أبشعها الخطية. على أن التفاهات ايضاً والماديات، إن كانت تبعدنا عن الله فهى ظلمة أيضاً، ليس لنا أن ندخلها إلى قلوبنا.

ويبقى الله وحده، ومعه لا نريد شيئاً على الأرض. نحارب كل شهوة وكل فكر فيهما تعطيل لمحبة الله. ويبقى الله وحده، كما تقولون في الترتيلة:

ليس لي رأى ولا فكر ولا   شهوة أخرى سوى ان أتبعك

لذلك فأولاد الله، قد يملكون المال، ولكن لا يملكهم...

قد يستعملون العالم، وكأهم لا يستعملونه (١كو ٧ : ٣١)، "لأن هيئة هذا العالم تزول". فلا يوضع العالم إلى جوار الله.

٣- مثال آخر نذكره هنا، هو لوط، ثم إمرأته...

لوط لم يصل إلى التجرد الذى يحب فيه الرب من كل القلب، والذى يقول فيه "معك لا أريد شيئاً من العالم". لذلك أختار الأرض المعشبة، ولم يختار المكان الذى فيه يستطيع فيه أن يحيا مع الله! فماذا كانت النتيجة؟ كانت أنه سبى (تك ١٤)، وفقد كل أملاكه. ثم أنقذه إبرآم. وأيضاً لوط لم يتعلم درساً، وكان البار يعذب نفسه يوماً فيوماً بمناظر الأشرار. وأخيراً فقد كل شئ فى حرق سادوم.

وهنا ظهرت توبة لوط ورجوعه إلى الله. فلما دعاه الملاكان أن يخرج من المدينة ويهرب إلى الجبل (تك ١٩)، لم يقل أملاكى وأغنامى ومالى وأنسبائى، إنما رضخ أخيراً وقال للرب "معك لا أريد شيئاً من العالم". وخرج من سادوم صفر اليدين لا يملك شيئاً، يكفيه الرب الذى سيبدأ معه من جديد، من لا شئ...

أما زوجة لوط، التى لم تدخل إلى قلبها عبارة "معك لا أريد شيئاً من العالم" فقد نظرت إلى الوراء، إلى العالم الذى تعلق به قلبها، فصارت عمود ملح... صارت درساً لكل من يضع إلى جوار الله شهوة أخرى يتعلق بها...

٤- من الأمثلة الجميلة: تلاميذ المسيح ورسله...

سمعان وأندراوس اللذان "تركا شباكهما وتبعاه" (مر ١ : ١٨). ويوحنا ويعقوب إبنا زبدى، اللذان "تركا أباهما زبدى فى السفينة مع الأجرى وذهبا وراءه" (مر ١ : ٢٠). ومتى الذى ترك مكان الجباية، ولم يحفل بمسئولياته. والباقون الذين تركوا بيتهم وزوجاتهم. وقلب كل منهم يردد عبارة "معك لا أريد شيئاً على الأرض". وبولس الرسول، الذى ترك مركزه الكبير وسلطته، وتحمل الآلام لأجل المسيح، قائلاً "خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكى أربح المسيح"، هكذا أيضاً كانت تربطه بالرب عبارة "معك لا أريد شيئاً على الأرض".

كلهم، بعد أن تركوا كل شئ، لم يندموا على شئ...

شعور كل منهم: كيف أريد شيئاً من العالم، بعد أن أشرق على قلبى هذا النور العظيم، وبعد أن تعرف على الرب، الذى هو أسمى من كل شئ، الذى وهبته قلبى، فصرت أنا كلى له، وصار هو لى.

٥- مثال آخر، هو الرهبان، وتاجر الجواهر:

الرهبان الذين عاشوا حياة التجرد الكامل، حياة النسك والزهد، لا يملكون شيئاً، بل قد نذروا الفقر الإختيارى، وارتفعوا فوق مستوى البيت والأولاد، وفوق مستوى المادة، وجالوا فى البرارى والقفار، معتازين هؤلاء من عظم محبتهم للملك المسيح، قالوا "معك لا نريد شيئاً من العالم"...

منهم أمراء تركوا الملك، مثل الأميرين مكسيموس ودوماديوس. وأصحاب مناصب كبيرة تركوا مناصبهم، مثل الأنبا أرسانيوس معلم أولاد الملوك. وأغنياء تركوا غناهم مثل العظيم الأنبا أنطونيوس. ومتزوجون تركوا زوجاتهم مثل الأنبا آمون والأنبا بولس البسيط... كلهم قالوا للرب "معك لا نريد شيئاً على الأرض"...

لعل هذا يذكرنا بمثل التاجر الذى قال عنه السيد المسيح "يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة. فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن، مضى وباع كل ما كان له واشتراها" (مت ١٣ : ٤٥، ٤٦). هذه اللؤلؤة الكثيرة الثمن، هى الحياة مع الله، وعشرته، والتمتع به، التى من أجلها يبيع الإنسان الحكيم كل ما يكون له، ويقول للرب يكفينى أنت، معك لا أريد شيئاً على الأرض...

ما أجمل المبدأ الرهبانى: الإنحلال من الكل، للإرتباط بالواحد.

أى أن القلب ينحل من كل شئ، ومن كل أحد، لكى يرتبط بالواحد الذى هو الله. وهذا الواحد، هو يشبعه ويملأ كل كيانه، ويكون سبب سعادته وفرحه. هكذا عاش الآباء، بفكر منشغل بالله وحده...

٦- مثل مريم ومرثا...

زارهما السيد المسيح في بيتهما. فانشغلت عنه مرثا بشئون الضيافة، وهو تظن أنها تفعل خيراً من أجله. أما مريم فجلست عند قدميه، تتأمله وتستمع إليه، مركزة كل عواطفها فيه، ولسان حالها يقول "معك لا أريد شيئاً على الأرض". وقد طوبها السيد المسيح بقوله عنها إنها اختارت النصيب الصالح. أما مرثا فقال لها الرب: أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، والحاجه إلى واحد (لو ١٠ : ٤١). لعل مرثا ينطبق عليها قول ذلك الأديب الروحى:

"قضيت عمرك تخدم بيت الرب، فمتى تخدم رب البيت"

حتى الخدمة لا يجوز أن تشغلنا عن عشرتنا بالرب، كما سنشرح فى صفحات مقبلة إن شاء الله. أما الآن فننتقل إلى مثل آخر هو:

٧- موسى النبى، بين القصر والبرية...

موسى النبى كان يعيش فى قصر ملكى، وكان معتبراً أحد الأمراء، إبن إبنة فرعون، وكان يحيط به الغنى والجاه والسلطان. ولكن كل ذلك لم يدخل إلى قلبه، بل كان قلبه متعلقاً بملكوت الله. لذلك وضع فى قلبه أن يعيش للرب

ويقول له "معك لا أريد شيئاً من العالم" "حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر" "مفضلاً بالأحرى أن يذل مع شعب الله، على أن يكون له تمتع وقتى بالخطية" (عب ١١ : ٢٥ ، ٢٦). وهكذا عاش مع الله كراعى غنم فى البرية، وكتائه مع الشعب فى سيناء، تاركاً متع الحياة فى قصر فرعون، فمع الله ما كان موسى يريد شيئاً على الأرض... لذلك استحق ان يكون كليم الله، وأمين على كل بيته (عد ١٢ : ٧)، "فما إلى فم وعياناً يتكلم الله معه، وشبه الرب يعاين". هكذا صارت علاقته مع الله...

ولأنه مع الله لم يكن يريد شيئاً على الأرض، لهذا صار له الله نفسه، يتحدث معه أربعين يوماً على الجبل، ويصيره وسيطاً بينه وبين شعبه، ويقبل شفاعته فيهم، بل يجعله ينير معه على جبل طابور فى التجلى.

٨- مثال آخر نتعلمه من أخطاء سليمان ورجوعه...

كان سليمان ملكاً عظيماً جداً، أعطاه الرب عظمة وجلالاً ملكياً أكثر من جميع الذين كانوا قبله فى أورشليم، ومنحه حكمة. ولكن سليمان على الرغم من حكمته لم يقل للرب "معك لا أريد شيئاً على الأرض"، بل إنه على عكس ذلك قال "بنيت لنفسى بيوتاً، غرست لنفسى كروماً، عملت لنفسى جنات وفراديس... عملت لنفسى برك مياه... قنيت عبيداً وجوارى... جمعت لنفسى أيضاً فضة وذهباً وخصوصيات الملوك والبلدان، واتخذت لنفسى مغنيين ومغنيات، وتنعمات بنى البشر سيدة وسيدات... ومهما اشتهته عيناى، لم أمسكه عنهما" (جا ٢ : ٤-١٠).

وفرح سليمان بكل تعبه هذا، الذى لم يكن مصدره الله، ولا محبته وعشرته. وفى كل ذلك أخطأ، حتى أصبح موضوع خلاص سليمان تحيطه علامة استفهام كبيره...! وماذا عن كل تعبه؟ لقد صار هذا التعب باطلاً، وذكرتنا قصته بلوط فى سادوم.

حصاد السنين كلها، الذى أضاعه لوط فى نار سادوم: السعى وراء الأرض المعشبة، ولو أدى ذلك إلى ترك مذبح إبراهيم وعشرته، الكد والكفاح من أجل الثروة، إحتمال البيئة الفاسدة وعثراتها والتزاوج مع الأشرار... كل ذلك حرقته النار، وخرج منه لوط بلا شئ... تماماً مثل كل تعب سليمان، الذى ختمه بعبارة "الكل باطل وقبض الريح، ولا منفعة تحت الشمس"... حقاً إن العلاقه مع الله هى الثابتة والخالدة، وهى النافعة فى هذا العالم وفى العالم الآخر. وماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟!

٩- إن أعظم مثل بشرى نضعه لعبارة "معك لا أريد شيئاً على الأرض" هو مثال آبائنا الشهداء...

الذين أحبوا الله، ليس فقط أكثر من كل متع الأرض، وإنما أكثر من الحياة ذاتها، فقدموا حياتهم من أجله، واثقين بأن هذه الحياة لها امتداد معه هناك فى الأبدية. وهكذا تركوا الدنيا كلها بكل ما فيها، ومعه لم يريدوا شيئاً على الأرض، ولا حتى أن يعيشوا فيها...

إن الذى يحب الله، ويكتفى به، يكون مستعداً أن يترك اى شئ من أجله، أو كل شئ من أجله...

١٠–والذى يترك من أجل الرب، يعوضه الرب أضعافاً:

هوذا الرب يقول "كل من ترك بيوتاً، أو أخوة أو أخوات، أو أباً أو أماً، أو إمرأة أو أولاد، أو حقولاً، من أجل إسمى، يأخذ مئة ضعف، ويرث الحياة الأبدية" (مت ١٩ : ٢٩). هذا من جهة الجزاء. على أن الذين يتركون شيئاً من أجل الرب، إنما يتركونه ليس من أجل الجزاء، إنما من أجل محبتهم للرب التى ملكت كل قلوبهم، بحيث زهدوا كل شئ، وقالوا للرب: معك لا نريد شيئاً على الأرض.

١١– هذه العبارة ليست فى مجال الحب فقط، إنما المعونه أيضاً...

بهذه العبارة استطاع يعقوب الضعيف الخائف، ان يتقابل مع أخيه عيسو القوى العنيف، الذى كان معه أربع مئة رجل (تك ٣٢ : ٦). أما يعقوب فلم يكن معه مثل هذا الجيش، وليس غير نسائه وأولاده وعبيده وإمائه. ولكن كانت له هذه الصلاة "نجنى من يد أخى، من يد عيسو، لأنى خائف منه... وأنت قلت لى: إنى أحسن إليك، وأجعل نسلك كرمل البحر" (تك ٣٢ : ١١،١٢). أنا أعتمد على قوتك أنت يارب، ومعك لا أريد شيئاً على الأرض.

الإنسان الروحى يرى أن الله هو راعيه وحاميه وحافظه:

إن أحاطت به مشكله، يحيلها إلى الله، فالله هو الذى يحل مشاكله، وليس هو. يقول للرب: من أنا، وما هى قوتى، وما هو فهمى حتى أحل مشاكلى؟ أنت يارب تعرف مشاكلى أكثر منى، تعرف الخفيات والظاهرات، والمشاكل الواضحه لى، والمشاكل المستتره عنى، والمشاكل المقبله فى الطريق.

بحكمتك يا رب تستطيع ان تحل كل مشكلة. وبمحبتك تريد، لأنى اثق تماماً أنك تحبنى أكثر مما أحب نفسى، وتحرص علىّ أكثر مما أحرص على ذاتى. أنا طفل أمامك "وحافظ الأطفال هو الرب" (مز ١١٦ : ٦). لذلك أترك كل شيء فى يديك، وأستريح بالإيمان، واثقاً انه عندك حلول كثيرة، وواثقاً بأنه "إن لم يبنى الرب البيت، فباطلاً تعب البناءون. وإن لم يحرس الرب المدينة، فباطلاً سهر الحراس" (مز ١٢٧ : ٦).

ما دمت ياربى ترى تعبى، فهذا يكفينى. أنت يا ضابط الكل، الذى تحفظ العدل على الأرض، وأنت مريح التعابى، تحمل أوجاعنا وآلامنا. لست أشغل نفسى مطلقاً بمشاكلى، إنما أتركها فى يديك "ومعك لا أريد شيئاً على الأرض".

الذى يلتقى بالله، لا يحتاج لقوة خارجية. قوته هى الله...

لذلك فهو يقول مع المرتل "قوتى وتسبحتى هو الرب، وقد صار لى خلاصاً" (مز ١١٨ : ١٤). قوته هى الرب نفسه. لا أسلحة العالم، ولا المعونة البشرية "فالإتكال على الرب خير من الإتكال على البشر" (مز ١١٨).

ولهذا يقول المرتل أيضاً "إلهنا ملجأنا وقوتنا، ومعيننا فى شدائدنا التى أصابتنا جداً... الرب إله القوات معنا. ناصرنا هو إله يعقوب" (مز ٤٦ : ١ ، ٧).

هذا الذى يرى أن قوته هى الله نفسه، لا يتكل على ذاته، على واهبه وذكائه وإمكانياته، ولا يتكل على ذراع بشرى، أو على حيل بشرية، إنما يكفيه الله وحده، يحارب به، وينتصر به، ويقوده الرب فى موكب نصرته.

لا يفكر كيف يتكلم، فالله هو الذى يتكلم على فمه "لستم أنتم المتكلمين، بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم" (مت ١٠ : ٢٠). ولستم أنتم الذين تدافعون عن أنفسكم، بل "قفوا وانظروا خلاص الرب. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون" (خر ١٤ : ١٣ ، ١٤). الرب هو قوة لكم. وهو خلاص لكم. والذى يكتفى بالله، لا تعوزه قوة أخرى. بل يقول للرب "معك لا أريد شيئاً على الأرض".

١٢- وبهذا المبدأ تقدم داود الصبى لمحاربة جليات الجبار...

شاول الملك قدم لداود الأسلحة والملابس الحربية، ولكنه تركها و لم يستعملها. وتقدم إلى جليات قائلاً "أنت تأتى إلىّ بسيف وبرمح وبترس، وأنا آتى إليك باسم رب الجنود" (١صم ١٧ : ٤٥). نعم يارب، أنا لا أملك أسلحة مثله، ولكن معى إسمك وقوتك. ومعك لا أريد شيئاً على الأرض... وحارب داود بهذه القوة الإلهية التى أغنته عن كل أسلحة الحرب، لأن الحرب للرب (١ صم ١٧ : ٤٧). وهو الغالب فى الحروب.

١٣- وجدعون فى هذا الأمر، علمه الرب درساً...

لقد جمع ٣٢ ألفاً لكى يقاتل جيش المديانيين، ولكن الرب رأى هذا العدد كثير، لئلا الشعب إذا انتصر يظن أنه بقوته وعدده قد انتصر وليس بالرب (قض ٧ : ٢). وهكذا ظل الرب ينقص العدد وينقيه حتى وصل إلى ثلاثمئة فقط، حارب بهذا جدعون وغلب، لكى يعرف أن القوة هى من الله، ومادام الله معه، فلا يحتاج إلى قوة جيش لكى ينتصر، إنما معه لا يريد شيئاً على الأرض، لا يعد قوة بشرية إلى جوار الله.

١٤- ومع الله أيضاً، لا نحتاج إلى حكمة بشرية...

كثيراً ما يعتمد الحكماء على حكمتهم وفهمهم، وليس على الله الذى يقول "وعلى فهمك لا تعتمد" (أم ٣ : ٥). لذلك إن سرت مع الله، فلا تبحث عن ذكائك أو حكمتك، لأن الله "إختار جهال العالم، ليخزى بهم الحكماء. وإختار ضعفاء العالم ليخزى بهم الأقوياء... لكى لا يفتخر كل ذى جسد أمامه (١كو ١ : ٢٧ – ٢٩).

إن داود النبى، الذى قال "ومعك لا أريد شيئاً على الأرض"، قال قبل ذلك مباشرة، فى نفس المزمور "وأنا بليد ولا أعرف. صرت كبهيم عندك، ولكنى معك فى كل حين. أمسكت بيدى اليمنى. برأيك تهدينى. وبعد إلى مجد

تأخذنى..." (مز ٧٣ : ٢٢ – ٢٤). ليس حكمتى هى التى تهدينى إليك، إنما أنت تمسك بيدى، وبرأيك تهدينى. ومعك لا أريد شيئاً...

١٥– مرقس الرسول فى كرازته، كان مثالاً أيضاً...

جاء يكرز فى مصر، بلا أية معونة بشرية، وبلا أية إمكانيات. لم تكن له فيها كنائس، ولا مؤمنون، ولا أية إمكانيات مادية. وعلى العكس كانت هناك عوائق من الديانات الراسخة، ومن الفلسفات القوية، ومن السلطة الرومانية... ولكن مارمرقس الذى دخل الإسكندرية ماشياً، وبحذاء مقطوع، قال للرب فى كرازته "معك لا أريد شيئاً على الأرض"... وقد كان. وبمعونة الرب وحده، تمم هذا الرسول خدمته، وكرز بالكلمة وأوجد لله شعباً...

١٦– وكذلك أيضاً الرسل الإثنا عشر فى خدمتهم...

أرسلهم الرب بلا كيس ولا مزود، بلا ذهب ولا فضة ولا نحاس فى مناطقهم (مت ١٠). ومع ذلك لم يعوزهم شيء. لكى يستطيع كل رسول منهم أن يقول للرب "معك لا أريد شيئاً على الأرض".

وعند باب الجميل، لم يكن مع بطرس شئ يعطيه للمتسول الأعرج. ولكنه قال له: الذى لى إياك أعطيه: باسم يسوع الناصرى قم امش (أع ٣ : ٦)... وهكذا كان اسم الرب كافياً، ومعه لا يريد الرسول شيئاً على الأرض.

١٧– حتى الذات لا نريدها أيضاً...

فى الخدمة، يكفيك الرب، لست تحتاج إلى ذهب ولا فضة، ولست تحتاج إلى حكمة بشرية، يكفيك الرب الذى يعطيك فماً وحكمة... وحتى ذاتك أيضاً لست تحتاج. فقد قال الرب "من أراد أ يتبعنى، فالينكر ذاته" (مر ٨ : ٣٤).

بل قال أيضاً "من أضاع نفسه من أجلى، يجدها" (مت ١٠ : ٣٩).

إذن قف أمام الله مجرداً من كل شيء، تكفيك نعمته. قل له فى إيمان وثقة "معك لا أريد شيئاً على الأرض"، "صرت كبهيم عندك" وأنا لا أعرف ولكن يكفينى "إننى معك فى كل حين".

ولكن هل أنت حقاً لا تريد سوى الله، أم لك أشياء أخرى تريدها؟... إن كان لك ما تريده إلى جوار الله، فهذا يمثل خطورة فى حياتك. فما هى؟...

[٤]

نقط الضعف والبدائل

الفهرس

أنت تريد أن تكون سعيداً فى حياتك. وللسعاده أسباب. فهل الله هو سبب سعادتك وهو مصدرها؟ أم أن هناك أسباباً أخرى تسعدك بدلاً من الله.

هذه المصادر الأخرى التى تسعدك، هى نقط الضعف فيك، والشيطان إذا تعرف على هذه المصادر، يحاول أن يتعبك.

إن القلب الزاهد فى أمور العالم الحاضر، هو حصن لا ينال. لا يستطيع الشيطان أن يجد مدخلاً إليه، ينفذ منه. ولكن الشيطان يراقبك ويرى ماذا تحب، وماذا تشتهى، وماذا يسعدك؟ لكى يمسكك منه. بل هو أحياناً يعرض عليك أموراً، فإذا استجبت لها، تكون قد استجب له، فيتخذها لمحاربتك.

فى الجنة عرض على أبوينا الأولين، أن يكونا مثل الله عارفين الخير والشر فوجدت الفكرة هوى في قلبيهما، وكانت نقطة ضعف أسقطهما بها الشيطان.

وعلى الجبل، حاول أن يعرف ماذا يسعد المسيح...!

كان السيد المسيح يقضى أوقاتاً مقدسة مع الآب، فى شركة روحية. فأراد الشيطان أن يعرف: هل يوجد شئ إلى جوار الآب يسعد السيد المسيح، فيغريه به، أو يجربه منه...! وهكذا عرض عليه تجربة الخبز: ما رايك أن تحوِّل الحجارة خبزاً، فتأكل أنت، وتطعم الناس، وتكسب شعبية عن هذا الطريق، وتؤدى رسالتك بهذه الطريقة كمصلح إجتماعى؟! ورفض المسيح الفكرة، لأن له طريقاً روحياً، يريد به أن يطعم الناس بكل كلمة تخرج من فم الله، لأنه قد جاء لإشباع أرواحهم التى لا تحيا بهذا الخبز... وهكذا فشلت التجربة الأولى.

فجربه الشيطان بالمناظر الروحية، بأن يلقى نفسه من فوق، وتحمله الملائكة، ويرى الناس فيؤمنون! ثم جربه بالملك، يصير له سلطان على هذه الممالك، وينشر الخير بالقوانين الأرضية... وفشلت هاتان التجربتان ايضاً، لأن المسيح رفضهما، إذ قد جاء ليُخلِّص ما قد هلك، وذلك بالصليب.

و لم يجد الشيطان شهوة فى هذا القلب القدوس النقى. لم يجد نقطة ضعف واحدة يستخدمها. وكما قال الرب "رئيس هذا العالم يأتى، وليس له فىَّ شيء". إنه قلب زاهد، لم تستهوه ممالك الأرض ومجدها، ولا المناظر المبهره للناس، ولا تحويل الحجارة إلى خبز. لا أغراض ولا أهداف جانبية، غير الملكوت...

لعبة الشيطان هى أن يجد شيئاً يسعد الإنسان غير الله...

أما النفس الزاهدة التى قوى الله مغاليق أبوابها، وجعل تخومها فى سلام، فهى هذه التى لا تعوزها شئ يستطيع العالم أن يقدمه، بل هى مكتفية بالله.

فهل توجد فى قلبك أية شهوة أو رغبة، يمكن للشيطان أن يشدك بها؟

إن الشيطان مستعد أن يقدم رغبات، حتى للنساك...

حتى الرهبان، الذين هجروا العالم وكل ما فيه، وزهدوا كل شئ، وماتوا عن العالم، ونذروا الفقر، وصلى الدير عليهم صلاة الأموات... هؤلاء ايضاً لا ييأس الشيطان منهم، بل يقدم لهم أيضاً رغبات ورغبات... وآمال، وأشياء يحاول أن يتعلق بها القلب...! ويضع أشياء فى القلب إلى جوار الله...

يريد أن يخرج الإنسان من دائرة الإكتفاء بالله...

فإذا ما الرغبات دخلت وملكت، تبتدئ سعادة الإنسان تهتز، ويبدأ سلامه يضيع... ويتحول الهدف عنده. بعدما كان هدفه هو الله، تصير له أهداف كثيرة، ويتوه فى العالميات، ويبعد عن الله...

ويصبح الله بالنسبة إليه مجرد وسيلة لتحقيق أهدافه...

إن أردا الله فهو لا يريده لذاته، وإنما ليحقق له أهدافاً فى قلبه يحبها. وإن صلى، فلا يصلى اشتياقاً لله وحباً، وإنما يصلى لكى يطلب من الله هذه الرغبات التى يحبها. ولا يصبح الله مركز الحب فى قلبه، إنما مجرد وسيلة...!

ولنضرب بعض أمثلة لأشخاص، إكتشف فيهم الشيطان رغبات معينة، أو وضع هو فيهم هذه الرغبات، وأصبحت نقط ضعف سقطوا بها، ولنبدأ بالأشرار أولاً...

١- آخاب الملك، وشهوة التملك...

أراد الشيطان أن يضرب آخاب الملك ضربة تعرضه لغضب الله وتقضى عليه، فعرض عليه أن يأخذ حقل نابوت اليزرعيلى ويضمه إلى أملاكه. وأعجب آخاب بالفكرة. فسيطرت على قلبه وعلى فكره، وأفقدته سعادته وسلامه، و لم يعد يستريح إلا إذا أخذ الحقل. ورفض نابوت، وتدخل إيزابل... وكان ما كان من قتل نابوت، ووراثة آخاب له، وتعرضه لنقمة الله. وهلك آخاب. كانت فى قلبه شهوة، تمثل نقطة ضعف، يدخل منها الشيطان...

أما القلب المرتفع فوق مستوى الرغبات، الذى نصيبه هو الرب، والرب وحده، فهذا لا يقدر الشيطان عليه، إذ لا يجد فيه شهوة يلعب بها لعبة المنح والمنع...

إنما يقدر على القلب، الذى تخرجه شهواته عن الله.

٢- كانت هذه هى مشكلة يهوذا الإسخريوطى ايضاً...

كان تلميذاً للسيد المسيح، واحداً من الإثنى عشر، يعيش مع الرب، ويرى معجزاته، ويسمع تعليمه... ولكن السيد لم يكن له كل شئ. كانت ليهوذا رغبات إلى جوار الرب وضعها فى قلبه. كان يحب المال الذى يوضع فى الصندوق الذى معه. لم يعد الرب هو الكل بالنسبة إليه، كما كان بالنسبة إلى الأحد عشر الباقين. وإذ لم يستطع يهوذا أن يخدم سيدين، ضحى بالرب وهلك...

٣-وبنفس الأسلوب، كانت هذه هى مشكلة اليهود مع المسيح...

كانوا ينتظرون المسيا، أي المسيح. ولكنهم ما كانوا يحبونه لذاته ويركزون فيه عواطفهم، إنما كانوا يريدونه كمجرد وسيله لتخليصهم من الحكم الأجنبى، من سطوة الرومان، وليؤسس لهم إمبراطورية تعيد حكم داود وسليمان...

كانت هناك فى قلوبهم رغبة غير الرب، رغبة فى العمق. وما كان الرب فى قلوبهم سوى شئ جانبى لتحقيق هذه الرغبة التى هى الأساس.

ولذلك حينما دخل المسيح إلى أورشليم فى يوم أحد الشعانين، ونادوا به ملكاً، لم ينادوا به كذلك حباً له، إنما حباً لأنفسهم "ولمملكة داود الآتية". الذات كانت هى الأساس، والمملكه والحكم والخلاص من الأعداء، كل ذلك كان هو الأساس، وليس المسيح... ولهذا، فإنه لما أعلن المسيح ان مملكته هى مملكه روحية، ليست من هذا العالم، إنفضوا عنه ودبروا لقتله فى نفس الأسبوع!

وأنت، هل الرب بالنسبة لك هدف أم وسيلة؟

عظمة القديسين كانت تكمن فى الإكتفاء بالله...

كان الله هو هدفهم، وهدفهم الوحيد، وقد ركزوا كل عواطفهم فيه. ولم تكن لهم رغبات إلى جواره تمثل نقط ضعف يستخدمها.

كان الله هو هدفهم، وهدفهم الوحيد، وقد ركزوا كل عواطفهم فيه. و لم تكن لهم رغبات إلى جواره تمثل نقط ضعف يستخدمها الشيطان لإسقاطهم. لذلك سهل عليهم أن يتركوا كل شئ من أجله، بكل رضى وفرح.

لم تكن لهم أهداف إلى جوار الله، أو بدلاً من الله...!

إن الأشرار لهم نقاط ضعف، من رغبات تحاربهم، كما ذكرنا أمثلة من آخاب الملك، ويهوذا الإسخريوطى، واليهود صالبى المسيح. ولكن ماذا عن أولاد الله؟

هؤلاء يحاربهم الشيطان ببدائل، تبدو فى ظاهرها مقدسة:

ولنذكر الخدمة هنا كمثال...

إنسان يتعرف على الله، ويسلك فى طرقه، فيشتاق أن يخدم... والشيطان لا يمنعه مطلقاً من الخدمة، إذ أنه بذلك يكشف حيلته، فيرفضها المؤمن ويقول له "إذهب عنى ياشيطان"... إنما على العكس يقول له الشيطان "إخدم، وأنا معك"...

ويغرقه فى خدمات كثيرة، حتى ما يجد وقتاً للصلاة...

تصبح الخدمة كل شئ فى نظره، يعطيها كل وقته وكل جهده وكل قلبه، حتى ما يجد وقتاً يتمتع فيه بالله... تسأله أين صلاتك؟ أين تأملاتك؟ أين قراءاتك الروحية؟ أين الساعات المقدسة التى تنسكب فيها أمام الله، فى حب وفى خشوع، تفتح له قلبك، وتعطيه من حبك، وتتمتع بحبه...؟!

يقول لك أعزرنى، انا مشغول... تحضير الدروس، والإفتقاد، والنادى، والحفلات، والرحلات، والصور، والجوائز، والندوات، والأمور المالية والإدارية الخاصة بالخدمة، والمكتبة ووسائل الإيضاح... أين أجد وقتاً لكل هذا، وكيف أجد للصلاة؟ وإن وجدت، سيسرح فكرى أثناء صلاتى فى كل هذا...!

حسناً أن يهتم الإنسان بالخدمة، بكل نشاطه وأمانة. ولكن ليس حسناً أن تصير الخدمة بديلاً لله...

إنها وسيلة روحية يعبر بها عن محبته لله، ويجذب بها الآخرين إلى محبة الله. ولكن لا يجوز مطلقاً أن تبعده الخدمة عن الله. لا يجوز أن تتحول الخدمة من وسيلة إلى هدف. وليس صالحاً للخدام أو للمخدومين أن تجف روحياتهم فى مجال الخدمة، عن طريق العمل المستمر الذى لا يجد وقتاً للصلاة والتأمل.

مرثا كانت تخدم الرب، خدمة أبعدتها عن الجلوس عند قدميه والإستماع إليه، فقال لها الرب "انت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، والحاجه إلى واحد". والإبن الكبير كان يخدم أباه "سنوات هذا عددها" ولكن فى مشغوليته لم تسمح له بعلاقات محبة ومودة مع الآب، فكلمه بأسلوب غير لائق (لو ١٥ : ٢٨ – ٣٠).

وما أعجب أن تكثر أخطاء الإنسان داخل الخدمة...

ليس فقط، أن المشغولية فى الخدمة تبعده عن الصلة المباشرة بالله فى الصلاة والتأمل والحب، وإنما ربما باسم "الغيرة المقدسة" يبدأ الخادم حرباً ضد كل ما لا يروقه فى الخدمة، وربما يعتبر زواناً ينبغى اقتلاعه من حقل الخدمة. وهكذا يشتم ويتشاجر و يعلوا صوته، ويدين غيره، ويتهم الآخرين فى قسوة وفى غير حب... ويرى نفسه فى كل ذلك بطلاً مدافعاً عن الحق! وقد يقارن بين البر الذى فيه، والخطأ الذى فى غيره، كما فعل الفريسى مع العشار...

كل ذلك داخل الخدمة وداخل الكنيسة... وتبحث أثناء ذلك عن علاقة الخادم بالله، فلا تجدها. لقد فقد سلامه الداخلى، وفقد عشرته مع الله، وفقد الحب. وفيما هو يحاول أن يقتلع ما يظنه زواناً، صار هو مثل الزوان...! وصارت الخدمة هدفاً، بدل من الله، وفيها فقد نقاوة قلبه، والكتاب يقول "طوبى لأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله" (مت ٥ : ٨).

الخدمة الحقيقية الروحية توصل إلى الله، وليست بديل عنه...

لهذا إن وجدت الخدمة قد أبعدتك عن صلواتك وتأملاتك وخلوتك وعشرتك مع الله، أو إن وجدتها قد أثرت على نقاوة قلبك، أو أفقدتك وداعتك وتواضعك، إعرف إنها قد انحرفت عن الطريق، أو أنها استقلت بذاتها عن الله وصارت هدفاً بدلاً منه... ! واحترس منها، وحاول أن تصحح مسارك...

إجلس إلى نفسك، كما كان يفعل أرسانيوس، وافحص نفسك...

كان هذا القديس العظيم يفحص نفسه باستمرار، ليعلم أين هو سائر. كذلك أنت أيضاً، إهدأ إلى نفسك وافحص ذاتك، ما هى علاقتك مع الله، وهل هو هدفك الحقيقى؟ وافحص كل الوسائط الروحية التى تسلك فيها: هل هى تقربك إلى الله؟ أم أنت تسلك فيها بطريقة روتينية سطحية بعيدة عن محبة الله؟ وهل بعض هذه الوسائط صارت هدفاً فى ذاتها، أو انحرفت فى الطريق؟!

وكما تحدثنا عن الخدمة، نتحدث عن الصلاة والتأمل...

قد تقف لتصلى. ولا يمنعك الشيطان من الصلاة، بل يراقبك أثناءها ليعطلك عنها بطريقة تناسب ذكاءه وحيله. فينتهز فرصة ورود تأمل روحى جميل لك أثناء الصلاة، ويقول لك "ما أجمل هذا التأمل. لا شك أنه سيفيد الكثيرين إن سمعوه منك". فإن أعجبتك الفكرة، يكون قد انحدر بك من الإنشغال بالله إلى الإنشغال بالناس. وهنا يتقدم خطوة أخرى، فيقول لك "كيف تضمن أن تحتفظ فى ذاكرتك بهذا التأمل الجميل إلى نهاية الصلاة. خذ ورقة وأكتبه حتى لا تنساه".

وبهذا يكون قد أحدرك من الله إلى الناس، ومن الصلاة إلى الخدمة، ويعطل صلاتك بطريقة تقبلها...!

فتترك صلاتك، وتجلس لتكتب تأملاتك! وقد تتكرر العملية أكثر من مرة! وتصبح التأملات بالنسبة إليك، ليست تعبيراً عن مشاعرك نحو الله وعمق عواطفك من جهته، إنما تصبح وسيلة لأجل الآخرين، ويقف الله جانباً...

ويكون الشيطان قد غير تقييم الأمور فى نظرك!

يكون قد أقنعك بأن تعطى الخدمة قيمة أقل من الصلاة. ويكون قد نقلك إلى الإهتمام بالناس أكثر من محبة الله ويكون قد حطم قيمة الخشوع فى الصلاة والتركيز فيها، وجعلك تتركها لتجلس وتكتب. وهكذا يشغلك عن الله بطريقة ما...! وشيئاً فشيئاً يغير تقييم الصلاة تماماً فى نظرك...

وربما يحاربك محاربة من نوع آخر فى تأملاتك، ويجعلها مجالاً للكبرياء والمجد الباطل، بدلاً من خدمة الآخرين ومنفعتهم. وذلك بأن تقولها لا بروح الخدمة، إنما بروح التباهى والإفتخار. وإذ بالصلاة والتامل، قد استخدمها العدو لضررك، ولإبعادك عن الله، وإذ بالخدمة قد أعطاها مفهوماً آخراً.

وقد يعطى العمل فى فكرك قيمة اكثر من الصلاة!

يلهيك فى أى نشاط يسميه "الخدمة"، وقد يكون خالياً من أى نفع روحى. وبسبب هذا العمل يبعدك عن الصلاة، أو يقول لك إن العمل صلاة! أما صلواتك فلتكن فى أى وقت، وفى أى موضع... وأنت سائر فى الطريق، أو وأنت جالس، أو وأنت تتكلم مع الناس، بدون الصلاة الخاشعة المركزة التى تشعر فيها فعلاً أنك واقف أمام الله...

إنها محاربات من جهة العدو، حتى فى الوسائط الروحية...

أما أنت يا حبيب الله، فلتكن متيقظاً. وليكن الله أمامك فى كل حين. وليكن لك الإفراز الذى تفهم به حيل العدو. فتحتفظ بالله فى قلبك على الدوام، وليكن هو هدفك وقمة إهتمامك.

واحترس من الخطايا المحبب، التى تلبس ثوب الفضيلة،

والتى تأتيك فى ثياب الحملان، غير كاشفة عن حقيقتها...

[٥]

التدرج

الفهرس

طبيعى أنك لا تستطيع أن تبدأ حياتك الروحية بالكمال، وأن يكون الله هو الكل بالنسبة إليك.ولكن إبدأ بأن تعرف الله، على أن تنمو فى هذه المعرفة. وأن تحب الله، وتنمو فى هذا الحب. وتعطى الله من كل قلبك، وتنمو فى الإعطاء وتفتح داخلك لله ليسكن الله فيه، وتوسع مكان سكناه.

درب نفسك أن تترك باستمرار بعض ما تحبه لأجل الله...

إلى أن يأتى الوقت الذى تستطيع فيه أن تترك كل شئ لأجله. خذ الصوم مثلاً: هل هو مجرد ترك طعام شهى لأجل الله؟ كلا، وإنما هذا الصوم هو تمهيد لأن تترك كل ما تشتهيه من أجل الرب. إنه فترة روحية، تقوى فيها الروح على الجسد، لتقترب إلى الله، ويزداد إقترابها يوماً بعد يوم.

وكلما تقل محبتك للعالميات، تزداد محبتك لله. المهم أنك لا تقف عند خطوة معينة، إنما تقدم بإستمرار.

كن كالبذرة، التى تصير شجرة، ثم تنمو وتنمو...

قال السيد الرب "هكذا ملكوت الله" كأن إنساناً يلقى البذار على الأرض، وينام ويقول ليلاً ونهاراً، والبذار يطلع وينمو وهو لا يعلم كيف، لأن الأرض من ذاتها تأتى بثمر، أولاً نباتاً، ثم سنبلاً، ثم قمحاً ملآن فى السنبل" (مر ٤ : ٢٦-٢٨).

هكذا طبيعة النمو: بذرة، عشب، نبات، سنبل، ثمر...

هات أية بذرة، والقها فى الأرض، فإنها لا تتوقف عن النمو. وإن صارت شجرة، تظل الشجرة كل يوم تنمو، بل كل ساعة وكل لحظة. النمو هو طبيعة فيها، سواء لاحظت أنت هذا يومياً أو لم تلاحظ. طبيعى أنك إذا غبت فترة عنها، وأتيت ستجد النمو واضحاً... والشجرة لا تمل من الصعود، ولا تتوقف.

كن أنت مثل هذه الشجرة، التى تطلع دائماً إلى فوق، وتمتد يميناً ويساراً. وتتدرج من بذرة تحت الأرض، إلى نبات فوق الأرض، إلى كيان ينمو و يعلو و يكبر. وكمثال حبة الخردل التى تشبه بها الملكوت...

هكذا أنت خذ درساً من الشجرة التى تنمو. خصص وقتاً لله، واجعل هذا الوقت يزيد بالتدريج. واعط من عاطفتك وحبك لله. وجاهد أن يزيد هذا الحب يوماً بعد يوم، وتظهر هذه الزيادة واضحة فى حياتك وعلاقتك بالله.

ولكن احذر... إن لم تستطع أن تنمو، وتوقفت...

أحترس كل الإحتراس، من أن ترجع إلى الوراء...

وحينئذ يقول لك الرب "عندى عليك، أنك تركت محبتك الأولى" (رو ٢ : ٤).

إنها مأساة حقاً، أن محبة الإنسان لله، بدلاً من أن تزداد، تتوقف، ثم تفتر أو تبرد، ويرجع إلى الوراء، ويشتهى يوماً من الأيام السابقة، أيام حرارة الروح، فلا يجدها. ويصرخ قائلاً "ياليتى كما فى الشهور السالفه، وكأيام التى حفظنى الله فيها، حين أضاء سراجه على رأسى، وبنوره سلكت فى الظلمة" (أى ٢٩ : ٢ ، ٣).

إن كنت ترجع إلى الوراء، فمتى تصل أيها الأخ؟ ومتى تصلين أيتها الأخت؟ والمشوار أمام كل منكما طويل، والهدف مايزال بعيداً.

لقد عرفت الله. هذا حسن جداً. ليتك تنمو فى المعرفة.

لكن لعلك تسأل: ما حدود هذا النمو؟

إن شئت الصراحة، لا حدود...

أنت اصطلحت مع الله بالتوبة، وكونت معه علاقة فى النقاوة، وسرت فى طريقه بالمحبة، عاشرته وصادقته وأحببته. وماذا بعد؟ يقول الرسول: "ليحل المسيح بالإيمان فى قلوبكم. وانتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين، ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكى تمتلئوا إلى كل ملء الله" (أف ٣ : ١٩).

"لكى تمتلئوا إلى ملء الله"... ما أعجبها عبارة!

إننى أقف أمام هذه العبارة مذهولاً، لا أعرف... كلما حاولت أن أغوص إلى أعماقها، أجدها أعمق من فهمى ومن إدراكى...! حقاً من منا يستطيع أن يدرك "كل ملء الله"...؟ ومن منا يستطيع أن يقترب من هذا الملء...؟ أو على الأقل ملء المحبة، التى تربط الإنسان بالله...؟

أنتقل بكم إلى عبارة أخرى أخف، هو قول الرسول:

"إمتلئوا بالروح" (أف ٥ : ١٨)...

ليس فقط أن تكون لك علاقة بالروح، أو خضوع وطاعة للروح، أو أن يحل عليك الروح، بل أن تمتلئ بالروح... لا يخلوا جزء منك من ملء الروح، لا قلبك، ولا فكرك، ولا حواسك... الروح يملأ كل ما فيك. ما أعظمها درجة...!

فهل وصلت إلى الإمتلاء بالروح؟ هل فرغت ذاتك من كل شئ آخر، لكى يملأ الروح كل مافيك، فتحيا بالروح، وبالروح تميت أعمال الجسد (رو ٨ : ١٣)؟

أنظر إلى قول القديس يوحنا الرسول فى سفر الرؤيا "كنت فى الروح، فى يوم الرب" (رؤ ١ : ١٠). ولأنه كان فى الروح، رأى السماء مفتوحة، ورأى عرش الله، ورأى السيد المسيح ووجهه كالشمس فى قوتها... كل ذلك، لأنه كان فى الروح... إذن ما معنى عبارة "الإمتلاء بالروح"؟ وكيف يصل الإنسان إليها؟

إن لم تصل إليها، لا تقف. سر نحوها...

إعرف أنك إن كنت سائراً نحوا هدف معين، وقطعت نصف الطريق إليه أو ثلاثة أرباعه. فأنت لم تصل بعد إلى غايتك، فيجب أن تكمل مسيرتك نحو هدفك، بكل أمانة. يعزيك قول المرتل فى المزمور الكبير "طوباهم الذين بلا عيب، فى الطريق" (مز ١١٩ : ١).

باستمرار كن ماشياً فى الطريق، متقدماً فيه، ولو خطوة بخطوة. تقترب إليه اليوم أكثر من أمس، وباكر اكثر من اليوم، وبعد باكر أكثر من باكر. وقل مع الرسول:

"ليس إنى قد نلت أو صرت كاملاً، لكنى أسعى لعلى أدرك"

ويشرح ذلك بقوله "أيها الأخوه، أنا لست أحسب نفسى أنى قد أدركت. ولكنى أفعل شيئاً واحداً، إذ أنا أنسى ما هو وراء، وأمتد إلى ما هو قدام. أسعى نحو الغرض..." (فى ٣ : ١٢ – ١٤). سر مع القديس بولس أيها الحبيب، وامتد معه إلى قدام...

كل يوم يمر عليك، فليقربك إلى الله بالأكثر...

فى نموك الروحى، وفى علاقتك بالله، إجعل كل يوم يمر عليك، يزيدك معرفه بالله، ويزيد حباً له، والتصاقاً به، وثباتاً فيه. ويزيدك خدمة له وبناء لملكوته. وفيما أنت تقترب كل يوم إلى الله، إحترس من المعطلات التى تقابلك على الطريق.

إحترس من الأهداف الجانبية، التى تعوقك عن الله...

الله هو هدفك الوحيد، وليس لك هدف آخر غيره. ولكن العدو إذ يريد أن يعطلك، يقدم لك فى مسيرتك الروحية – أهدافاً أخرى جانبية، ربما تبدو سليمة أمامك. ولكن القصد منها هو تعطيلك عن التركيز فى الله ومحبته... فاحترس منها.

صدقنى، إن ملائكة الله فى السماء او وهى "مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص" (عب ١ : ١٤)، هذه الملائكة تعجب جداً، إذ تجدنا متمسكين بأمور تافهة، جاعلين منها أهدافاً تعطل مسيرتنا نحو الله!

حقاً، إن كل رغبة غير الله، هى رغبة تافهة، ولا يمكن ان تشبع القلب إشباعاً حقيقياً. وكما قال القديس أوغسطينوس، مناجياً الله فى اعترافاته:

"ستظل قلوبنا قلقة، إلى أن تجد راحتها فيك"

إن الله إن رآنا بدلاً من الإمتداد إلى قدام، فى الطريق إليه، قد توقفنا عند بعض الأهداف الجانبية، فشغلتنا عنه، ووهبناها من الوقت والجهد والصحة والعاطفة والإهتمام، ما كان يجب أن نقدمه إليه هو، الهدف الحقيقى وحده... فإنه يقول لنا نفس العبارة التى قالها قديماً للشعب التائه فى البرية:

"كفاكم قعوداً فى هذا الجبل" (تث ١ : ٦)

إمتد إذن إلى قدام. ولا تسمح لأى شئ أن يعطلك فى الطريق. كل محبة تشغلك عن محبة الله، أو تحاول أن تحل بدلاً من محبة الله فى قلبك، وكل رغبة أو شهوة تسبب لك فتوراً فى روحياتك، إقلعها والقها عنك... واحتفظ بالله وحده فى قلبك، لا ينافسه شئ، ولا ينافسه أحد...

وليكن الرب معك، يقويك وينميك،

ويقود خطواتك إليه.

آمين

فى هذا الكتاب

يا أخى القارئ:

هل عرفت الله؟

وهل بدأت علاقة معه؟

وهو علاقتك بالله أخذت تنمو، حتى صار هو الأول فى كل إهتماماتك ومشاعرك؟

وهل نمت علاقتك به، حتى صار هدفك فى الحياة، ونصيبك الوحيد منها؟

وهل استطعت أن تقول له "معك لا اريد شيئاً على الأرض".

إنها سلسلة عن الله والإنسان، يحدثك هذا الكتاب عن أول حلقاتها.

شنودة الثالث.